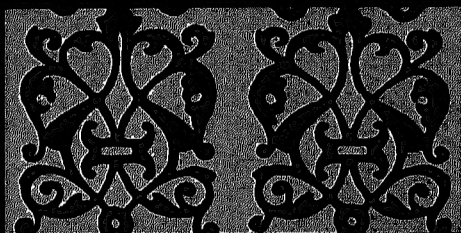
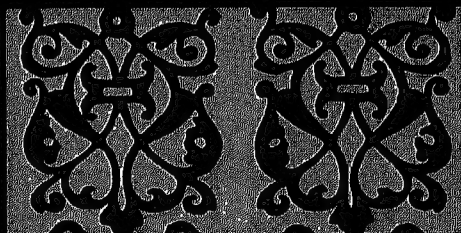




إلى الفراء الكريمة



الإمام الأكبر
محمود شلتوت



دار الشروق



إلى القرآن الكريم

إلى القرآن الكريم

للإمام الأئمة
محمود شلتوت

دار الشروق—

مقاصد القرآن

لقرآن الكريم : آخر كتاب أنزله الله هداية للناس أجمعين : «كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور بأذن ربهم الى صراط العزيز الحميد » ، وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون » ، « ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم اجرا كبيرا » .

ومن هنا كان العمل على ما يقرب للناس معناه ، ويفتح لهم باب التفقه فيه ، من أهم ما يجب على القادة والمرشدين . .

وقد رأينا ان نقدم هذه الطريقة التي ترسم الخطوط الاولى للموضوعات التي يتضمنها الربع من القرآن حتى تصبح مقاصده بارزة ومسالك فهمه واضحة ، تتأخذ مكانها من القلب ، وتتجه النفس الى التوسع في التفقه والمعرفة . وسنبدا — ان شاء الله — من أول القرآن ، بحدوث نجيل فيه مقاصد القرآن جملة ونشير الى أساليبه التي اتخذها سبيلا للدعوة اليها .



ونرجو ان يكون هذا بمثابة منار يهدي الى معرفة ما هو من مهمة القرآن فيطلب منه ، وما ليس من مهمته فلا ننتظره منه ، ولا نكره آياته عليه . .

وان نظرة في القرآن الكريم في مثل قوله تعالى : « ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم اجرا كبيرا » لترينا ان مقاصد القرآن تدور حول نواح ثلاث : ناحية العقيدة ، وناحية الاخلاق ، وناحية الاحكام .

فالعقائد : تطهر القلب من بذور الشرك والوثنية ، وتربطه بمبدأ الروحية الصافية ، وهي تشمل ما يجب الايمان به في جانب الله من صفات الجلال والكمال ، وما يجب الايمان به في جانب الوحدانية

والرسالات من الملائكة والكتب والنبيين ، وما يجب الايمان به في حالات اليوم الآخر من البعث والجزاء ..

والاخلاق : تهذب النفس وتزكياها ، وترفع من شأن الفرد والجماعة ، وتقوى برى التأخى والتعاون بين بنى الانسان ، وتشمل : الصدق ، والصبر ، والوفاء بالعهد ، والحلم ، والجود ، والرحمة ، وغيرها مما يحقق فى الانسان ثمرة ايمانه بالله وصفاته التى يجب أن يكون عليها عباده .

أما الأحكام : فهى ما بينه الله فى كتابه ، أو بين أصوله من النظم التى يجب اتباعها ، فى تنظيم علاقة الانسان بربه ، وعلاقته بأخيه الانسان ، وتشمل : أحكام الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، واليمن ، والنذر ، وما الى ذلك مما يدخل فى دائرة العبادات ، التى تغذى الايمان . وتنمى ثمراته الطيبة . وتشمل : أحكام الزواج ، والطلاق ، وما يتبعهما من مهر ونفقة ، ورضاعة ونسب ، وعدة ، ووصية ، وارث ، وما الى ذلك مما يدخل فى دائرة الاحوال الشخصية ، أو أحكام الأسرة . وتشمل : أحكام البيع ، والاجارة ، والرهن ، والمدانة ، وما الى ذلك مما يدخل فى دائرة المعاملات المالية . وتشمل : أحكام الجنايات ، والجرائم ، كالقتل ، والسرقة ، والافساد فى الارض ، والزنا ، والقذف ، وما الى ذلك مما يدخل فى دائرة العقوبات ، وتشمل : أحكام الحرب والسلام وما يتبعهما من غنائم وأسرى ، ومعاهدات ، وما الى ذلك مما يدخل فى دائرة الأحكام الدولية العامة .

مصادر التشريع الاسلامى

وقد عرض بعد هذا كله لمصادر التشريع ، وبين أنها الكتاب والسنة ، واجتهاد أولى الراى ، أرباب العلم بالمصلحة فى نواحي الحياة .

كما عرض لاساس الحكومة فى الاسلام وهى الشورى ، وجعلها من أخص أوصاف المؤمنين .

أساليب الدعوة

هذه هي الخطوط الأصلية لمقاصد القرآن الكريم . . اما الأساليب التي اتخذها سبيلا للدعوة الى تلك المقاصد فهي :

أولا : الإرشاد الى النظر والتدبر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ، لتعرف أسرار الله في كونه ، وابداعه في خلقه ، وبذلك تمتلئ القلوب إيمانا بوجوده وعظمته عن نظر واقتناع لا عن تقليد وابتداع . وبهذا السبيل كرم الله العقل ، وفتح له باب البحث عن خواص الأجسام وأسرار الكائنات في الأرض ، والسماء ، والماء ، والهواء ، كي ينتفع بها في حياته ، ويستخدمها في التعمير والانشاء .

ثانيا : قصص الأولين ، أفرادا وأما . الصالحين منهم والمفسدين ، وقد أورد القرآن في ذلك كثيرا مما يثير العظة والاعتبار ، ويرشد الى سنن الله في معاملة عباده ، وهذا هو مقصد القرآن من ذكر قصص الماضين . . فلم يذكره على انه تاريخ يحدد الزمان والمكان والأشخاص ، ويرتب الوقائع ويبين الأسباب والنتائج ، ولم يذكره على انه أساطير تتحدث عن الغرائب والأعاجيب التي يسمر بها الناس في النوادي والمجتمعات .

ثالثا : ايقاظ الشعور الباطني في الانسان فيندفع الانسان بوحى هذا الشعور الى التساؤل عن مبدئه . وعن مادته وعن حياته ، وعن مآله ومصيره ، حتى يصل الى الاعتراف بخالق القوى والقدر ، واضع الأسباب والمسببات ، رب الأرض والسموات ، مدبر الأمر ومصرفه ، وتلك هي الفطرة التي ذكرها الله بقوله تعالى : « فطرة الله التي فطر الناس عليها » .

رابعا : اما الأسلوب الرابع الذي اتخذته القرآن في الدعوة الى مقاصده ، فهو : أسلوب الإنذار والتبشير ، أو الوعد والوعيد ، وللقرآن في ذلك طريقان :

أحدهما : الوعد والوعيد عن طريق الحياة الدنيا : يعد المؤمنين الصالحين بعموم السلطان والتمكين في الأرض ، وينذر الجاحدين المفسدين بتقلص العز وانتزاع الملك ، وتسليط الأعداء .

وثانيهما : الترغيب بنعيم الآخرة الدائم الذي لا ينقطع ، الصافي الذي لا يشوبه كدر . والترهيب من الكفر والافساد في الأرض والطغيان على عباد الله بعذابها الدائم المهين .

هذه مقاصد القرآن الكريم ، ونلك أساليبه في الدعوة ..

فعلينا أن نتجه الى القرآن فنرتل آياته ، أو نسمعها ، ونستخلص أحكامه ، ونعرف أغراضه .. وعسى أن نجد في هذا ما يقرب لنا الأمر ، ويسهل علينا التفقه بالقرآن ، فنعمل به في خاصة أنفسنا ، وأهلينا ، ومواطنينا ، وبذلك نحصل على رضا الله واسعاده في الدنيا والآخرة ..

« والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة انا لا نضيع أجر المصلحين » .

محمود شلتوت

سورة الفاتحة

سورة الفاتحة ، وتسمى أم الكتاب ، هي احدى سور خمس في القرآن الكريم بدئت باثبات الحمد لله (١) .

(*) وقد اجملت الفاتحة كل ما فصل في القرآن الكريم من اثبات التوحيد والبعث ، وبيان الطريق المستقيم الذي يسلكه الانسان في تنظيم حياته مع ربه ومع نفسه . ومع الناس : فالجملتان : الحمد لله رب العالمين « ، « الرحمن الرحيم » تثبتان توحيد الله في الخلق والتربية عن طريق الرحمة الواصل اثرها الى عباده . والجملة الثالثة : « مالك يوم الدين » تثبت النشأة الآخرة التي يقع فيها الجزاء على الاعمال . والجملتان : اياك نعبد ، واياك نستعين « تقرران مبدا عبادة الله وحده ومبدا عجز الانسان واحتياجه الي معونة ربه ، وتقطعان عليه سبيل التوجه لغير الله بالعبادة والاستعانة .

وجملة «اهدنا الصراط المستقيم» توجه الانسان الى طلب الاحكام التي ينظم بها شأنه من الله سبحانه وتعالى فهو المعلم ، وهو المشرع ، وهو الموفق للعمل بما يعلم وبما يشرع .

الناس أمام شرع الله

وجملة « صراط الذين انعمت عليهم » ترشد الى ان الناس أمام شرع الله وطريقه فرق ثلاثة : فريق عرفوا بالتزام الصراط المستقيم حتى اضيف اليهم ، وعرف بهم ، وكانوا فيه قدوة لغيرهم ، وهم « المنعم عليهم » وفريق جحدوا صراط الله واحكامه عنادا واستكبارا وهم « المغضوب عليهم » ، وفريق متردد بين الظهور بالايمان وبين استبطان الكفر وهم « الضالون » .

(١) وهي : الفاتحة . الانعام . الكهف . مائا - فاطر
(*) في تفسير الاجزاء العشرة الاولى للقرآن الكريم - راجع كتابنا : تفسير القرآن الكريم الجزء الاول .

وبذلك استوفت سورة الفاتحة العقيدة في المبدأ والمعاد ، وبه
كمال الانسان من الجانب العلمى ، واستوفت طريق العمل الصالح
وبه كمال الانسان من الجانب العلمى ، وأشارت الى تاريخ البشرية
الفاضلة فى التزام الحق علما وعملا ، والى تاريخ البشرية الفاسدة
فى التنكب عن العلم والعمل ، وهذا اجمال كل ما فصل فى القرآن
الكريم ، ومن هنا كانت الفاتحة مقدمة الكتاب ، وإمام الكتاب .

سورة البقرة

الربع الاول :

(*) سورة البقرة هي أطول سورة في القرآن ، وأول سورة مدنية فيه ، وقد اشتملت على بيان طوائف الناس بالنسبة للارتفاع بالقرآن وعدم الانتفاع به ، وتوجيه الخطاب الى الناس عامة بعناصر الدين ، والتنبيه الى بعض أدلة التوحيد في النفس والأفاق ، والتذكير بمكانة الانسان التي أعد لها في هذه الحياة .

طوائف الناس أمام القرآن

بدأت السورة فنوهت بشأن القرآن الكريم ، وأنه حق لا ريب فيه ، وأن الذين ينتفعون به انما هم « المتقون » الذين سلمت فطرهم من تسلط المادة المظلمة ، والصبية الغاشمة ، فأمنوا بالله واليوم الآخر ، وعرفوا حق الله فأقاموا الصلاة ، وحققوا عباده فأنفقوا في سبيله . « وما رزقناهم ينفقون » وعرفوا أن رسالته في جميع الأزمان واحدة ، فأمنوا بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وما أنزل من قبل : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

ثم تقابل هؤلاء بطائفة ثانية تبجحت بالعناد ، وتحكمت فيهم النشأة الخسالة ، حتى انسدت عليهم طرق الهداية وصاروا لا يرجي منهم خير ولا ايمان ، وهؤلاء هم الذين آياس الله من ايمانهم نبيه ، وقال فيهم : « سواء عليهم أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم .

ثم ذكرت السورة طائفة ثالثة ، هي شر ما ابتلى به الحق وأهله في هذه الحياة وهم المنافقون ! .. أنكرت قلوبهم كالكافرين ،

(*) يشتمل القرآن على ثلاثين جزءا . وكل جزء يحتوى على ارباع والربع عفا من أول سورة البقرة الى نهاية الآية ٢٥ .

ونالفتوا ، وقابلوا المؤمنين بوجه والكافرين بوجه . وقد تحدث الله عنهم في الربع الأول بثلاث عشرة آية ، أظهر دخليتهم وأغراضهم ، ومرض قلوبهم ، وذذبتهم بين هؤلاء وهؤلاء : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » . ثم زادهم توضيحا فغضب لحيرتهم مثلين : مثل من أضاعت حوله النار ثم انطفأت عليه ، وتركته في ظلمة لا يهتدى فيها الى صواب . . . ومثل من أخذته السماء ، بمطرها وظلمتها ورعدها وبرقها ، فأخذ يتحين الخلاص مضطربا في شأنه ، خائفا من الهلاك ، ولو شاء الله لذهب بسمعه وبصره ، ان الله على كل شيء قدير .

وأخيرا يوجه الخطاب الى الناس عامة ، فيطلب منهم عبادة الله وتوحيده ، والإيمان برسالة محمد ، ويقرر الجزاء ، وفي سبيل ذلك يلفت نظرهم الى نعمته عليهم بالتربية والخلق ، وبتسخير الأرض ومنافعها ، والسماء ومائها في الحصول على الرزق والثمرات ، ويتحذاهم أن يأتوا بمثل القرآن وهم أهل الكلام ، ثم يحذرهم — ان لم يفعلوا ولن يفعلوا — النار التي وقودها الناس والحجارة .

وهنا يأتى الأمر بتبشير المؤمنين بأن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، جمعت لذائد المادة والروح ، وهم فيها خالدون .

الربع الثانى :

ضرب الأمثال فى القرآن

(*) من سنة الله فى القرآن أن يستخدم فى البيان ضرب الأمثال تقريبا لما يجب أن تفعل به النفوس ، وتؤمن به القلوب . . . فغضب مثلين للمنافقين وضرب الشجرة الطيبة مثلا للكلمة الطيبة . . . وضرب الذبابة والعنكبوت مثلا للشعفاء والاولياء الذين اتخذهم المشركون معبودات ليقربوهم الى الله .

وقد جاء هذا الربع يقرر أن الله لا يمتنع من ضرب الأمثال بما يوضح ويبين ، دون نظر الى قيمة الممثل به فى ذاته أو عند الناس : « ان الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » .

(*) من الآية ٢٦ الى نهاية الآية ٤٣ من سورة البقرة .

أما الناس فهم أمام هذه الأمثال غريقان : غريق يفهم القصد الذى ترمى إليه ، ويكون لها اثرها الحسن فى نفوسهم .. وغريق يتعلق باسم الحيوان الذى ضرب به المثل ، ولا ينظر الى المعنى المقصود ، فيتساءل متعجبا ، مستهزئا ، منكرا ، ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ ! .. ويتخذ ذلك سبيلا لايقاع الشك فى قلوب الناس ، وهذا شأن الفاسقين الذين خرجوا بأنفسهم عن هداية الله فى خلقه ، وأساليب البيان التى طبع عليها كل لسان ، هؤلاء الذين كان من خروجهم عن هداية الله ، نقض عهد التوحيد والهداية ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل من رسالته المتتابعة ، والافساد فى الأرض ، يسجل الله عليهم الخسران فيقول : « أولئك هم الخاسرون » . ثم يتعجب من كفرهم واستمرارهم على هذا الفسوق مع وضوح دلائل التوحيد والايمان فى انفسهم : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ، ثم يميتكم ثم يحييكم ، ثم إليه ترجعون » ، وفى الآفاق : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جبيعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم » .

الحكمة فى خلق الانسان

ثم يذكر الناس بما اقتضته حكمته فى خلق النوع الانسانى ، مزودا بقوى العقل والادراك ، وقوى العمل فى هذه الحياة : « واذا قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة » .. ثم بما كان من الملائكة فى الاستفسار عن الحكمة فى خلق هذا النوع ، وهو — على ما يعلمون — ذو شهوة وغضب ، بهما يفسد فى الأرض ، ويسفك الدماء . وعندئذ صور لهم تدرة الانسان — بما ركب فيه — على معرفة خصائص الاشياء ، وطلب منهم الاخبار بها ، فظهر عجزهم عما يقدر عليه الانسان ، فعلموا أنهم لا يستطيعون الخلافة فى الأرض التى اختير لها ذلك النوع القدير على معرفة هذه الخصائص والانتفاع بها ، فآمنوا بحكمة الله ، وانقادوا لأمره سبحانه فى تعظيم آدم وسجدوا كما أمروا : « واذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر » . نفس شريرة ، عتت عن أمر ربها ، وكانت من الكافرين ، ومنح الله آدم منزلة التكريم ، وجعل له زوجا من نفسه يسكن اليها ، ومكتنبا من متعة المادة ، بعد متعة المودة ، ثم اختبرهما — لحكمته البالغة — بالنهى

عن الأكل من شجرة معينة ، ولكن الشيطان الذى أبى أن يسجد وقف
لادم بالمرصاد ، ومازال يغريه وزوجه حتى زلا ووقعا فى المخالفة ، وعندئذ
أنزلا حيث التكليف ، وحيث العمل ، وحيث المنازعات والمنافسات :
« وقتلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى
حين » . وعندئذ أدرك آدم خطيئته ، فتلقى من ربه كلمات فتاب
عليه انه هو التواب الرحيم ، وقرر له ولذريته نظام حياتهم ، وطرق
سماعتهم وشفائهم : « فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى
فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك
أصحاب النار هم فيها خالدون » .

هاجة الانسان الى الوحي

وعبرتنا من هذه القصة ، ان الله خلق الانسان وجعله مستعدا
للعلم والانتفاع بما خلق الله فى الكون ليكون خليفة فى الأرض ،
يعمرها وينميها ، ويكون بعمله مظهرا لرحمة الله بعباده . وليخلق
فيه روح المكافحة ، خلقه مستعدا ايضا للتأثر بداعية الخير ، وداعية
الشر ، وبين له ان عاقبة التأثر بداعية الخير السعادة المطلقة ،
وعاقبة التأثر بداعية الشر الشقاء المطلق . وبذلك كان الانسان
فى حاجة الى الوحي الالهى يتيه ويحفظه من دواعى الشر ، وعلى
هذا المبدأ أرسل اليه الرسل ، وأنزل الكتب تذكيرا بما يسعده ،
وتنفيرا مما يشقيه ، فيجب علينا أن نتعرف أنفسنا بغرائزها .
وأن نحصنها بهداية الله من كيد الشيطان ، وأن نلتزم ارشاد الله
وأحكامه حتى نفوز برضاه ، ونحصل على اسعاده .

دعوة الرسول

مسورة البقرة نزلت بعد أن هاجر المسلمون الى المدينة ،
وصارت لهم بالهجرة وحدة خاصة ، وجوار ممن أوتوا الكتاب من
قبل . . وقد كان من المرتقب أن يلبي هذا الجوار الجديد دعوة النبى
الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل ، وكانوا يطلبون
به قبل مجيئه النصرة على أعدائهم ، ولكن خاب الفال وضاع
المرتقب ، وحملهم الحسد والبغى على الاعراض والتكذيب والانكار ،
فتحدثت السورة عنهم فى أربع وثمانين آية ، بدأها الله وختمها
بندائهم ونسيبتهم الى أبيهم ، يستحثهم على الايمان ، ويذكرهم

بنعمته عليهم : « يا بني اسرائيل اذكروا نعمتى التى ائتممت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم واياى فارهبون ، وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ، ولا تشتتوا بآياتى ثمنا قليلا واياى فاتقون ، ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتبوا الحق وأنتم تعلمون ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين » .

الربع الثالث :

انحراف رؤساء بنى اسرائيل

(*) ثم بدأ ييكت الرؤساء — الذين يتلون الكتاب ، ونصبوا أنفسهم لتعليم الناس أحكامه — على أنهم يتركون أنفسهم للشهوات والأهواء دون تزكية ولا تطهير مع أنهم فى الوقت نفسه يأمرّون الناس بالبر والخير ، ويحكمون لهم بالهدى والايمان ، أو يحكمون عليهم بالضلال والكفر ، ويرشدهم الى الطريق الذى يقودهم الى الخير فى أنفسهم وفى جماعتهم « واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين ، الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وانهم اليه راجعون » .

ثم يعود فيذكرهم مرة أخرى بالنعم التى انعم بها عليهم فى شخص أسلافهم ويحذرهم يوم العدل والقصاص : « واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ، ولا يؤخذ منها عدل ، ولا هم ينصرون » .

تذكيرهم بنعم الله

ثم يأخذ بهم الى الماضى فيذكرهم بتنجية أسلافهم من فرعون ، وقد كان يذيقهم سوء العذاب ، يذبح أبناءهم ويترك نساءهم ، ويذكرهم بأن انجاءهم كان بأسلوب الهى لا قدرة للإنسان عليه ، ولا سبيل له فى الاهتداء اليه : كأن يفلق البحر وتهيئة طريق لهم فيه حتى اذا ما جاوزوا البحر ونجا جميعهم ، وأتبعهم فرعون وجنوده ، أطبق البحر على فرعون وقومه وغشيه من اليم ما غشيه ، وأضل فرعون قومه وما هدى : « وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون » . نعمة مزدوجة ، فضل وقدرة ، انجاءهم وأهلك عدوهم .

(*) من الآية ٤٤ الى نهاية الآية ٥٦ من سورة البقرة »

ويذكرهم بعنوه عنهم حينما عبدوا العجل في غيبة موسى ، ويذكرهم بنعمة انزال التوراة التي بها يعرفون الحلال والحرام ، ويفرقون بين الحق والباطل . ويذكرهم بعلاجهم من اثر الصاعقة التي اخذتهم حينما تمردوا ، وقالوا لموسى : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة : « ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون » .

ويذكرهم بنعمته عليهم حينما جنبوا عن دخول الأرض المقدسة ، وقالوا : « أن غيها قوما جبارين » ، ففضى عليهم بالبقاء في الصحراء ، تائبين أربعين سنة ، تأديبا واعدادا لذرية صالحة منهم . يذكرهم وهم في ذلك التأديب بنعمة تظليلهم بالغمام ، يقيهم وهج الشمس ، وشدة البرد ، ونعمة انزال المن والسلوى ، ابقاء لهم ، ورحمة بهم : « كلاً من طيبات ما رزقناكم » .

ويذكرهم بما كان منهم بعد أن خرجوا من التيه ، وبعد أن رأوا نعمة الله عليهم فيه : ذكرهم بتمكينه إياهم من دخول الأرض المقدسة ، والتمتع بخيراتهما ، وإيأمرهم بالشكر على النعم ، وتقدير الفضل والرحمة ، والاعتراف بالذنب . ولكنهم مع هذا كله يبدلون قولاً غير الذي قيل لهم : يستمرثون العصيان ، وينغمسون في الطغيان ، فينزل عليهم العذاب : « رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون » وهكذا سنة الله فيمن يكفر بنعمه فلا يستمع لواجب الشكر ، ولا يقوم بحق العبودية ، وينزل في أفعاله وسلوكه على حكم الشهوة والهوى .

الربع الرابع :

نرق وطغيان

(*) والحديث فيه لا يزال مع بنى اسرائيل ، يذكرهم بالنعم على أسلافهم فضلاً ورحمة وبالنقم عظة وتأديباً : أقاموا في صحراء التيه وانقطع عنهم الماء ، فطلب لهم موسى السقيا من ربه ، فبأمره أن يضرب الحجر بعصاه ، فتنفجر منه عيون الماء ، فيأكلون ويشربون ، يأخذ الله عليهم العهد بأن لا يفسدوا في الأرض .

(*) من الآية ٦٠ الى نهاية الآية ٧٤ من سورة البقرة *

يذكركم الله بهذه النعمة ، ويذكركم بتمردهم في طلب الماديات ، كما تمردوا بطلب رؤية الله من قبل : « لن نصبر على طعام واحد » . نرق وطغيان فهم يعلمون أنهم في صحراء لا ماء ولا زرع ، ولا تنبت شيئا مما يطلبون ، ولكنه العناد والتمرد ، يذهب بصاحبه في الضلال كل مذهب ، ويطلب به الأدنى بدل الأعلى : « اتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ » ، ومع هذا فلکم ما سألتكم : أخرجوا من التيه وأدخلوا مصرًا ، تثبت لكم أرضها ما طلبتم ، وقوموا بحق الله ، واستمعوا لأنبيائه . ولكنهم يصرون على طريقتهم ، ويقتلون النبيين بغير الحق ، ويعصون أوامر الله ، ويعتدون على الحقوق والحرمان ، ولا يزالون كذلك حتى يضرب الله عليهم الذلة والمسكنة ، ويبوعوا بغضبه ونكاله « ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » .

إيمان وعمل

وبعد ذلك ترشد الآيات الى أن أساس النجاح والخسران ليس في النسبة الى رسول ما ، دون الأخذ بأحكامه وأرشاداته ، وإنما هو في صدق الايمان بالله واليوم الآخر ، والعمل الصالح ، فمن يؤمن بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر ، ويعمل صالحا « فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . وفي هذا ارشاد الى أن القيم الرفيعة لا تحفظ عند الله بالأحساب ، ولا بالأنساب ، وإنما تحفظ بمعان فاضلة تملأ القلب وتظهر آثارها الطيبة في الحياة .

عود الى التذكير بالنعم

ثم تعود الآيات الى تعداد النعم ، فتذكركم بأخذ الميثاق عليهم أن يعملوا بالتوراة وأن يأخذوا أحكامها بقوة ، وأن يتجهوا الى إصلاح أنفسهم بها لعلهم يتقون . .

وتذكركم بآية من آيات الله ، كان جديرا بهم أن يعتبروا بها ، وأن يعلموا أن القادر عليها قادر على أن يقلبها عليهم ، فيصبحوا بها جائمين ، ولكنهم ظلوا بعدها على شأنهم في العناد والمكابرة ، ومع هذا فقد امتدت اليهم رحمة الله ، وعاملهم بفضلهم وإحسانه ، ولم يشأ أن يأخذهم بآياته : « فلو لا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم

من الخاسرين » . ثم تذكرهم بما كان من بعض أسلافهم حينما أمرهم الله أن يتفرغوا في يوم السبت لعبادته فعصوا ، محتالين بطريقة عجيبة وهى أن يحجزوا السمك يوم السبت في حظائر ويتركوه فيها ليأخذوه في اليوم الذى بعده ، فضرب الله عليهم الخزى وسلبهم خصائص الانسانية الفاضلة ، وملاً قلوبهم بالطمع والشره ، شأن القردة ، وكانت تلك عقوبة ظاهرة فيهم ، وفي أسلافهم من بعد : « ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ، فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين »

ثم تذكرهم الآيات بموقف من مواقف العناد التى وقفها آباؤهم من قبل ، وكانت سببا في التشديد عليهم : تقع فيما بينهم حادثة قتل لا يعرف فيها القاتل ، ويختلفون على أنفسهم فيه ، فيلتجئون الى موسى ويطلبونه بمعرفته ، فيأمرهم بناء على ارشاد ربه أن يذبحوا بقرة ، فيقبلوا الأمر بالاستهزاء ويسألون عنها : في سننها ، في لونها ، في شأنها كله ، حتى ضيقوا على أنفسهم ، ولم يعثروا عليها الا بعد شدة ، فتذبح البقرة ويضرب القاتل بجزء منها ، فيحيا ويخبر بقاتله ، ومع هذه الآية الواضحة القوية تظل قلوبهم قاسية ، غمى كالحجارة أو أشد قسوة : « وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون » .

الربع الخامس :

عناد ونفاق

(*) وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يطعمون في انهم يسارعون الى الايمان به وذلك نظرا الى انهم اهل دين سماوى اصوله هى اصول رسالته وكتابهم يبشر به ويذكر أوصافه ، ولكن الله يعلم منهم خلاف ذلك ، فهم سلالة هؤلاء الذين احتفظ لهم التاريخ بكثير من المساوىء الدينية ، ومواقف العناد والمكابرة لرسولهم ، ولم يعملوا على تطهير أنفسهم مما كان عليه الاسلاف ،

(*) من الآية ٧٥ الى نهاية الآية ٩١ من سورة البقرة .

وقد قص الله على نبيه فيما سبق كثيرا من مساوئهم ، كما قص عليه كثيرا من النعم التي كان يعالجهم بها ، المرة بعد الأخرى ، وفي هذا وجه الخطاب الى النبي وأصحابه باستبعاد ايمانهم ، وبأنهم على عكس ما يطمعون . وأخذ يلفت الأنظار الى أنهم في الانحراف عن الحق يشقون طريق أسلافهم ، ويسيروا على منهجهم ، فمنهم فريق يسمع كلام الله ويفهمه على وجهه الصحيح ، ثم يحرفه ويصرفه الى غير وجهته ومنهم فريق ينافق المؤمنين فيظهر لهم الايمان ، ويذكر ما يجده في التوراة من أوصاف محمد ، وإذا خلا بعضهم الى بعض تعاتبوا وتلاوموا ، وقالوا لبعضهم : « اتحدثونهم بما فتح الله عليكم . ليحاجوكم به عند ربكم أملا تعقلون » .

ومنهم فريق لا يعلمون التوراة إلا تلقا من أفواه الأخبار والرؤساء على حسب ما أرادوا لها من التحريف والكذب والتدليس . هؤلاء الرؤساء الذين يكتبون الكتاب للناس بأيديهم على حسب أهوائهم ، وينشرونه عليهم « ثم يقولون هذا من عند الله . ليشتروا به ثمنا قليلا » . هذه بعض خلالهم ، فكيف تطمعون في سرعة ايمانهم ؟

أكاذيب مردودة

ثم أخذ يتتبع كلماتهم المسمومة التي كانوا يلقونها على مسامح الناس ليشتككوهم في صدق الدعوة ، ويصدوهم عن تليبيتها ، شأن المبطلين في محاربة الحق في كل عصر وفي كل مكان ، كانوا يقولون : « نحن أبناء الله وأحباؤه » . « ولن تمسنا النار إلا أياما معدودة » وكانوا يقولون : « قلوبنا غلف » مثقلة ، لا ندرك شيئا مما يقول ، ولا تتجه اليه ، فيرد الله عليهم بأن تأقيت العذاب أو خلوده لا يعرف إلا من جهته سبحانه ، فهل أنزل عليكم فيه وحيا ، وأخذتم به عليه عهدا : « أم تقولون على الله ما لا تعلمون » ؟ .

الجزاء من جنس العمل

وليست المسألة عند الله مسألة محاباة بحب أو بنوة ، وإنما هي ذات مبدأ عام ، وحكم عام ، ان تحقق المبدأ تحقق الحكم ، وان لم يتحقق المبدأ لم يتحقق الحكم ، وبنو اسرائيل وغيرهم في المبدأ والحكم

سواء : « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » .

هذا هو المبدأ ، ونحن اذا جئنا نطبقه على حالتهم ، وجدناهم قد أخذ الله عليهم الميثاق ان يعتقدوا الحق ، وأن يفعلوا الخير : « واذا أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون الا الله وبوالدين احسانا » . كما أخذ عليهم الميثاق الا يفعلوا الشر ولا يقتربوا المحرم : « واذا أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم » . ثم وجدناهم قد نقضوا العهدين ، فتولوا عن فعل الخير ، وتظاهروا بالاثم والعدوان . واذا فبحكم المبدأ ليس جزاء من يفعل ذلك منهم : « الا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون » .

ايثار الدنيا سبب البلاء

ثم كشف لهم الفطاء عن سبب هذه المخالفة الكامن في نفوسهم ، وأنه هو ايثارهم الحياة الدنيا وزخارفها على الآخرة ، واهمالهم بذلك تعاليم انبيائهم الذين أرسلوا اليهم واحدا بعد الآخر يدعونهم الى الهدى والحق فلم يحفلوا بهم ، واستكبروا عن اتباعهم : « ففريقا كذبتهم وفريقا تقاتلون » . أما قولكم : « قلوبنا غلف » فواقع الأمر أن الله لم يخلق القلوب غلفا مقفلة ، وانما خلقها مستعدة لقبول الحق ، وهم بكفرهم ، وضعوا عليها الغلظة والقفل : « بل لعنهم الله بكفرهم فقليلما يؤمنون » ، وها هم أولاء يعلمون أن نبيا سيبعث ، مصدقا لما معهم ، وكانوا يطلبون به الفتح على اعدائهم قبل مجيئه : « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » وضعوا الغلاف على قلوبهم ، وباعوا أنفسهم بالشهوات والاهواء ، وكفروا بالله ورسوله ، لا نزولا على حجة ، وانما بغيا وحسدا ، أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده : « فباعوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين » .

وكان من كلماتهم التي يبررون بها عدم ايمانهم ، اذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قولهم : « نؤمن بما أنزل علينا » فهو الذى نثق بأنه من عند الله ولا شأن لنا بغيره ، غيرد الله عليهم : بان القرآن

الذى يطلب منهم الايمان به ، هو « الحق » الذى تنشدته الفطرة ، ويشهد بصحته الوجدان ، وهو مصدق لما أنزل عليهم ، فاذا كفروا به فقد كفروا بما أنزل عليهم . ثم كيف يقبل منهم انهم يؤمنون بما أنزل عليهم ، وقد قتلوا أنبياء الله الذين بلغوهم آياه ؟ ! وكيف يقبل منهم وقد حفظ لهم التاريخ انهم عبدوا العجل فى غيبة موسى بعد أن جاءهم بالبينات ، وأنهم قالوا حينما أخذ عليهم الميثاق بما نزل عليهم : « سمعنا وعصينا » ؟ أهذا ايمانهم بما أنزل عليهم ؟ ! « قل بثبسا يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين » .

الربع السادس :

مزاعم باطلة

(*) والحديث فيه لا يزال فى شان بنى اسرائيل المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم ، ومناقشة كلماتهم التى كانوا يسمعون بها جو الدعوة ، ويلبسون بها على الناس . وقد كان فيها قولهم : « نؤمن بما أنزل علينا » ، ومعناه انهم لا يؤمنون بما سواه . فرد الله عليهم بأن القرآن الذى يطلب منهم أن يؤمنوا به هو الحق ، وانه مصدق لما أنزل عليهم ، فكيف يزعمون انهم يؤمنون بما أنزل عليهم ؟ ! وكيف يصدقون فى هذا وقد قتلوا أنبياءهم من قبل ، وحفظ لهم التاريخ انهم عبدوا العجل فى غيبة موسى : « ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وانتم ظالمون » . ثم يختم الرد عليهم بقوله : « قل بثبسا يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين » .

ثم يرد عليهم مزاعم أخرى باطلة ، كانوا يقولون : ان الدار الآخرة خالصة لنا لا يقال نعيمها أحد سوانا ، فقبل لهم اذن : « فتمنوا الموت ان كنتم صادقين » . ثم يتحداهم بما لا يعجزون عنه . ويستخرج السبب الواقعى الذى تنطوى عليه قلوبهم من حب الدنيا وشدة الحرص عليها : « ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم » . « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا » . ثم يكشف عن واقع أمرهم : « يود أحدهم لو يعمر ألف

(*) من الآية : ٩٢ الى نهاية الآية ١٠٥ من سورة البقرة .

مسنة « خوفاً من العذاب الذى يلاقونه ، ولكن ليعلموا ان التعمير فى الدنيا مهما طال امده ، لا يبعدهم عن عذاب الله ، فهو لاحق بهم لا محالة ، ولكل بداية نهاية ، ولكل أجل كتاب : » والله بصير بما يعملون » .

ثم كان من كلماتهم فى عدم الايمان بمحمد قولهم : ان الذى ينزل عليه بالوحى هو جبريل ، وأن جبريل بينه وبينهم عداوة ، وقد رد الله عليهم بأن جبريل ما هو الا رسول ، نزل به بأذنه على قلب محمد ، وبأن ما نزل به جبريل لم يكن مخالفاً لما عندهم ، بل كان مصدقاً له ، وكان هادياً ومنقذاً من الضلال ، وأذن فعداوة جبريل ، عداوة لمن نزل به ، وتكذيب منهم لما عندهم ، وعداوة للهداية . والعاقل لا يرفض الهداية اياً كان مصدرها ..

ثم يوضح الله الحق فى هذا الشأن ، وهو ان ما نزل به جبريل أو غيره من الملائكة على محمد ، أو على غيره من الانبياء هو فى حقيقته من الله وأمر الله ، فمن اتخذ أحداً منهم عدواً فقد عادى الله .. ومن عادى الله ، عاداه الله * « قل من كان عدواً لجبريل فانه نزل به على قلبك بأذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ، من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين » .

الاسلام دين الفطرة

ثم أخذ يطعن النبى صلى الله عليه وسلم بأن ما أنزل عليه من آيات بينات واضحة لا يكفر بها الا من فسد طبعه ، وزاغ عن فطرته . فلا تكثر يا محمد بكفر هؤلاء الذين فسقوا عن أمرنا ، وكلما عاهدوا عهداً نبذوه فریق منهم ، وهذا شأنهم فى العهود ، وهو كشأنهم فيما ينزل مصدقاً لما معهم . وتكذيبهم لما يصدق ما معهم تكذيب لما معهم ، وبهذا يصيرون كأنه لم ينزل عليهم شئ ، وكانهم لا يعلمون .

ما كفر سليمان وما ضل الملكان

فنبذوا هداية الله قديمها وحديثها ، وأخذوا يصرفون الناس عن

النظر في الحقائق بالآوهام والاكاذيب ، التي كان يخترعها المردة
المفسدون عن ملك سليمان ، وعما أعطاه الله للرجلين الصالحين
ببابل هاروت وماروت . .

كانوا يخترعون أن ملك سليمان أساسه السحر والشعوذة ،
وأن الملكين عندهما أشد أنواع السحر التي تفرق بين المرء وزوجه ،
ولمثل هذه الأحاديث شيوخ ، فشاءت بين الناس حتى تأثروا بها ،
واتخذوها دينهم في الحياة ، وشغلوا بها حتى صرفتهم عن كل
خير وفضيلة . وقد بين الله الحق فيما اختلقوا على سليمان وعلى
الملكين ، وقرر أن سليمان ما كان ساحرا وما كفر بئمة ربه ،
انما كان هاديا ورسولا ، وأن الملكين : الرجلين الصالحين ما كانا
بمفسدين في الأرض ، ولا بمبدسين على الناس ، وإنما كانا
ناصحين أمينين : « وما يعلمان من أحد حتى يقولوا انما نحن فتنة
فلا تكفر » ، ولكن المفسدين أنكروا على سليمان النبوة والملك
الالهي ، كما أنكروا فضل الله على الرجلين الصالحين في معرفة
خصائص الأشياء وأسرار النفوس ، وزعموا أن ما عندهما
وما عند سليمان سحر وشعوذة ، وبهما بلغا ما بلغا ، فاتبعوه على
ما رسموا وتخللوا ، وأخذوا ينفثون به في الروابط البشرية لتخل ،
والصلات الانسانية لتتقطع : « يفرقون به بين المرء وزوجه » ،
بين الوالد وولده ، بين الأخ وأخيه ، بين الصديق وصديقه ،
وبالتالي بين الرسول وقومه ، وبين الناس وهداية الله : « وما هم
بفسارين به من أحد الا باذن الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ،
ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به
أنفسهم لو كانوا يعلمون » .

وعبرتنا من تلك القصة أن نعتى بالحقائق النافعة ، ولا نشغل
أنفسنا بالآوهام والخيالات .

ثم تحذر الآيات المؤمنين مخاطبة النبي ببعض الكلمات التي كان
يستغلها المعاندون في الاستهزاء بالرسول ، وتأمرهم بالسمع
والطاعة وتتوعد المستهزئين بالعذاب الاليم . ثم ترشد الآيات الى
أن عناد الكافرين منشؤه كراهتهم أن ينزل على المؤمنين خير من
رهبهم ، ولكن الله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

الربع السابع :

المعجزة شان من شئون الله

(*) والحديث فيه أيضا لا يزال في بنى اسرائيل ، وقد كان من كلماتهم في التأثير على الناس وصرفهم عن الايمان بمحمد ، انه لم يأت بمعجزة تدل على انه رسول من عند الله ، وكانوا يطلبون معجزات مثل معجزات موسى وعيسى . . وكان العرب مثلهم في هذا الشأن ، فرد الله عليهم بانه لا يترك معجزة من المعجزات السابقة التي يذكرونها ويطلبون مثلها ، او التي انساهم اياها فلا يذكرونها ، الا أتى لرسوله محمد بمعجزة هي خير من المعجزات السابقة ، او مثلها على الأقل في الدلالة على صدقه : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » .

فالمعجزات شان من شئونها ، نختار منها ما نعلم انه اوفق للمصلحة ، واقدر على الاقتناع وانسب للعصر . ثم أخذ يذكروهم بسؤال أسلافهم لموسى ، وحذروهم ان يسألوا محمدا كما سئل موسى من قبل ، وأشار الى أن هذا عدول عن الايمان الى الكفر : « ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل » . وفي هذا تحذير لضعاف الايمان من المؤمنين ان يسمعوا الكلامهم ، او يسيروا في طريقهم وقد أرشدتهم الى أن هؤلاء المشككين يودون ان ترجعوا كفارا ، حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ، فاحذروا التأثير بهم ، ولا يحملنكم بفضهم اياكم ان تعتدوا عليهم : « فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره » ، وعليكم بتطهير أنفسكم بالصلاة ، وتقوية روابطكم بالزكاة : « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله » .

ثم يعود فيذكر بفرور هؤلاء الكذابين ، وزعمهم انه لن يدخل الجنة الا من كان منهم ، ويطلبهم ببرهان ذلك ان كانوا صادقين . ويقرر ان أساس الأجر عند الله هو اسلام الوجه لله والاحسان الى عباد الله : « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

(*) من الآية ١٠٦ الى نهاية الآية ١٢٣ من سورة البقرة .

مسلك مخرب

ثم أخذ يطمئن المؤمنين بأن خطة هؤلاء في التشكيك والتكذيب والانتكار ، ليست شأنا خاصا بكم ، وانما هي شأنهم حتى غيما بينهم : ينكر بعضهم على بعض ، ويجهل بعضهم بعضا ، والكتاب بين أيديهم ، يزعمون أنهم يؤمنون - ، وانهم أرباب الدين الخالد . وبهذه الخطة الفاسدة التي فرقت كلمة الله اعتدى بعضهم على بعض ، وتحاربوا حتى خربوا أماكن العبادة ، ومنعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وتقام عبادته . وما كان لهم أن يختلفوا في مثل هذا الشأن ، ولا أن يعتدى بعضهم على بعض بسببه ، فله المشرق والمغرب ، يعبد في كل مكان : « فإينما تولوا فثم وجه الله ان الله واسع عليم » ولم تقف بهم هذه الخطة الفاسدة عند حد الاعتداء عليكم ، أو اعتداء بعضهم على بعض ، بتخريب أماكن العبادة والتقديس ، وانما امتدت أهواؤهم الى الجانب الأقدس ، فزعموا أن الله ولدا ، وطلبوا أن يكلمهم أو يخصهم بأية من عنده ، فيرد عليهم بأن له ما في السموات والأرض، وبأن كل من فيها قائم له وخاشع، وأنه خالقهما ومديرهما ، وأنه اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون . واذا كان هذا شأنه في الملك والتصريف والإيجاد ، فكيف يكون له ولد يفصل منه — وينسب اليه بالجزئية التي هي أساس البنوة والأبوة : « لم يلد ولم يولد » . يرد عليهم في طلب مكالمته اياهم بأنه طلب التعنت والاعراض عن الآيات : « كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم ، تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون » .

توجيه ونصح

ثم وجه الخطاب الى النبي صلى الله عليه وسلم بتأكيد ارساله بالحق بشيرا ونذيرا ، وبأنه غير مسئول عن كفر من كفر ، واعراض من اعرض ، وبأن هؤلاء لا يرضون عنك حتى تترك ما انت عليه من رسالة ربك وتتبع ملتهم . ثم تحذر الآيات اتباعه في شخصه أن يتبعوا أهواءهم ، ويتأثروا بهم ، بعد ما ظهر لهم من العلم والهدى ، وتنذرهم اذا هم سلكوا طريقهم بحرمانهم من ولاية الله ونصرته : « مالك من الله من ولى ولا نصير » .

هذا شأن الكثرة الساحقة من هؤلاء الذين كنت يا محمد تطمح في ايمانهم وسرعة تلبيتهم قد بيناه ، ومع هذا فففيهم من يرجى خيره ، وهم الذين يتلون الكتاب حق تلاوته ، وينتفهمون حكمه وأسراره ، فأولئك هم الذين يصح أن تعلق بهم رجاء الايمان ، وتطمع في تلبيتهم دعوتك : « الذين آتيناهم الكتاب يتلوننه حق تلاوته ، أولئك يؤمنون به » أما الاكثرون من الرؤساء المعاندين ، والمقلدين الجاهلين ، فأولئك هم الخاسرون ، الذين لا ينبغي أن تكثر بهم ، ولا أن تطمح في ايمانهم ..

ثم تعود الآيات وتستحثهم على الايمان ، وتناديهم كما نادتهم أولا بنسبتهم لاسرائيل ، نبي الله يعقوب ، وتذكرهم بنعمة الله عليهم ، وأنه لا يليق بمن كرمه ربه ، ومضله بالحكم والنبوة ، أن يكون حظه من هداية الله الجحود والانكار . وفي سبيل هذا تنذرهم كما أنذرتهم من قبل باتقاء يوم الحساب والجزاء : « يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين ، واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ، ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون » ..

سورة آل عمران

الربع التاسع :

أصيب المسلمون في غزوة أحد بما سجلته سورة « آل عمران » وسمعوا بعد الهزيمة من الكفار والمنافقين كثيرا من كلمات الشتمة والتخذيل : « لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا » ، « لو نعلم قتالا لاتبعناكم » ، « لو أطاعونا ما قتلوا » .

جزاء الشهداء

(*) وقد أرشد الله في هذا الربع الى حملة من العلاج الذي يحفظ على المسلمين قوتهم المعنوية من التأثير بكلمات الشتمة والتخذيل . وكان مما أرشدوا اليه فيما يختص بقتلى أحد ، الذين جادوا بأنفسهم في سبيل الله ، انهم ليسوا — كما يظن هؤلاء — امواتا توارت أجسامهم ، وطويت صفحاتهم ، وذهبوا الى حيث لا يذكرون ، بل لقد ارتقى بهم ايمانهم واستشهادهم الى العندية القدسية ، تشرق عليهم فيها أنوار التجليات ، ويتمتعون بما أعد لهم من الفضل الالهي : « فرحين بما آتاهم الله من فضله » ، وفرحين بما رأوا من المكانة التي أعدت لأخوانهم الذين تركوهم في الدنيا ، يشقون طريقهم بايمان مثل ايمانهم ، وجهاد مثل جهادهم . تركوهم يستجيبون لله وللرسول ، غير مكترئين بالأراجيف المرجفين ، ولا فتن الشالين المكذبين ، بل قالوا : حسبنا الله ، واتبعوا رضوانه . وما زادتهم الفتن والأراجيف الا ايمانا على ايمان ، وقوة على قوة : « الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » .

وكان مما أرشدوا اليه فيما يختص بهؤلاء المرجفين ، ان ارجافهم — وهم الشياطين المفسدون — لا يؤثر الا على مثل اتباعهم ضعاف الايمان ، فاسدى العقيدة ، وليس له سلطان على المؤمنين الذين يملأ الايمان قلوبهم فيحفظها من التأثير بالأراجيف

(*) من الآية ١٧١ الى نهاية الآية ١٨٥ من سورة آل عمران .

والفتن ، وسينزل بهؤلاء المفسدين الجزاء الذى يستحقون : » انما نملئ لهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين » . .

عبر من الهزيمة

وكان مما أرشدوا اليه حكمة الهزيمة التى أصيبوا بها وهى :
أن الله يريد تطهير صفوف المؤمنين من أرباب القلوب الفاسدة ،
وليس من شأنه فى ذلك أن يوحى بها فى الضمائر من خبث ونفاق ،
وانما شأنه وسنته أن يصطفى رسلا يدعون الى الايمان وفى ظل
السلم يختلط الكاذب بالصادق ، والخبث بالطيب ، فيجرى الله
احداثا ويسوق شدائد ، تميز الخبيث من الطيب وتطهر جماعة
الايمان الحق ، فيوافيهم بالنصر والتأييد : « فآمنوا بالله ورسله
وأن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم » .

عاقبة البخلاء

وكان مما أرشدوا اليه أن هؤلاء الذين يقبضون عن الانفاق
فى سبيل الله ، ويخلون بما آتاهم الله من فضله : « سيطوقون
ما بخلوا به يوم القيامة » ويكون حملا ثقيلا فى أعناقهم لا يستطيعون
التخلص من تبعاته ، وسيرجع ما بأيديهم الى الله الذى له ميراث
السموات والأرض ، والذى أنعم عليهم به من فضله ليبلوهم
أيذكرون .

وبهذه المناسبة عرضت الآيات للتحقير من شأن كلمات كان يلقيها
الاعداء بقصد الحط من مكانة الرسالة وصاحبها عليه الصلاة
والسلام : « ان الله فقير ونحن أغنياء » ، « ان الله عهد الينا
الا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقريان تأكله النار » . وتتوعدهم
بالعذاب الليم ، وتأمّر الرسول بأن يرد عليهم بقوله :
« قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبأذى قتلتم فلم تقتلتموهم ان
كنتم صادقين » ؟

.. تسليية

ثم تأخذ فى تسليية الرسول فى تكذيب القوم له ، بأن اخوانه
السابقين قد كذبتهم امهم من قبل بعد أن جاءوهم بالبينات ، وكان

جزاء الرسل لما صبروا النصر والتأييد ، وجزاء القسوم المكذبين الخزي والديار . وتلك سنتنا مع الأولياء والأعداء ، وستنقضي هذه الدنيا وتذهب كل النفوس الى بارئها وتوفى كل نفس ما عملت ، ويرى المؤمنون الصادقون ما أعد لهم من نعيم دائم ، ويرى الكافرون المكذبون ما أعد لهم من عذاب أليم : « فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » . .

الربيع العاشر :

اعداد واستعداد

(*) بعد أن أرشد الله المؤمنين الى حكمة الهزيمة التي أصابهم في أحد ، لفت أنظارهم الى أن ما أصابهم في تلك الغزوة ليس آخر ابتلاء يصيبهم من أعدائهم ، وأكد لهم أنهم سيختبرون في مستقبل حياتهم بالشدائد في الأموال والأنفس ، بالفعل وبالقول من قريبى المعارضين لهم ، وسيرون أذى كثيرا . . فلا يظنوا أن الأمر يقف عند حد هذه الغزوات الأولى ، فمرحلة الجهاد طويلة ، وتضحيات النصر كثيرة ، فليوطنوا أنفسهم عليها ، ويستعينوا على تحملها بالصبر والتقوى : « لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » .

ثم أخذ يذكرهم بسوء عاقبة أعدائهم بجرائمهم التي اقترفوها وصدوا بها الناس عن الإيمان بالحق ، فهم قوم نقضوا ميثاق الله ، ونبدؤوا وراء ظهورهم ، واشتروا به ثمنا قليلا ، وفرحوا بما ارتكبوا . في جنب الله ، وعملوا جهدهم على أن يعتقد الناس فيهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وحملوهم بذلك على أن يعظموهم وأن يسمعوا لدعواتهم في التآليب ضد الحق الذي يدعو اليه الرسول وصحبه المخلصون : « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم »

(*) من الآية ١٨٦ الى آخر سورة آل عمران . .

الامر والتدبير لله وحده

وبعد ان تفرغ الآيات من ارشاد المؤمنين الى ما يجب عليهم من الصبر والتقوى في مواقف الجهاد والاخلاص في الدعوة ، والى ما سينزل بخصومهم من عاقبة كيدهم وطغيانهم ضد الحق واهله ، تأخذ في تقرير ربوبية الله ، وأنه صاحب الامر والملك والتدبير في السموات والأرض ، لا شأن لاحد فيهما سواء . فهو القادر على الوفاء بما وعد المؤمنين ، وما توعد به الكافرين : « والله ملك السموات والأرض والله على كل شيء قدير » .

وجوب النظر في آيات الله

ثم تأخذ الآيات في فتح أبواب العظة والاعتبار ، ودلائل القدرة للذين خلصت قلوبهم من الأهواء والشهوات ، وتحكم التقاليد الباطلة : « ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لاولى الالباب » .

ثم تصف اولى الالباب بصفتين : هما الحبل المتين الذي يصل الانسان بربه ويقيه شر المآثم والطغيان في هذه الحياة : « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم » أى يذكرونه بعظمته وجلاله وقدرته في جميع أوقاتهم ، وفي جميع شئونهم ، ثم يكون هذا الذكر نتيجة لتدبرهم في خلق السموات والأرض وما فيهما من اتقان وابداع ، وعجائب وأسرار ، فليس ذكرا ينطلق به اللسان ، ولا يدفع اليه الجنان ، انما هو ذكر ينبع من القلب الى سماء الرب ، فيرفع همة صاحبه فينطلق لسانه بالدعاء وقلبه بين الخوف والرجاء : « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه » تنزيها لك عن الباطل في خلقك وعملك وحكمك : « فقنا عذاب النار » بدوام توفيقك وعنايتك . ثم يذكرون مال غضبه سبحانه على الذين ظلموا الحق فأنكروا ربوبيته وكفروا برسالته ، فيكون دعاؤهم : « ربنا انك من تدخل النار فقد أضررتنا ، وما للظالمين من أنصار » . ثم يؤكدون تلييتهم لدعوة الحق التي ارتضاها لعباده على لسان نبيه ، ويلتمسون منه المغفرة والانعام عليهم بما وعد المؤمنين المخلصين فيكون قولهم : « ربنا اننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمننا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ، ربنا

وأتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد ..

هذا موقف الذاكرين لربهم ، المفكرين فيما خلق ودبر ، عرف منهم الصدق في الايمان والذكر والنكير والتنزيه : « فاستجاب لهم ربهم انى لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى ، بعضكم من بعضى » لا تفاضل بينكم الا بالعمل والتقوى ، وقيام كل بما طلب منه .

ثم يذكر بعض اسباب النعيم وتكفير السيئات ، والثوبة الدائمة ، ويخص اهم ما يطلب من المؤمن وقت ثورة الكفر على الايمان ، فيذكر الهجرة والاخراج من الديار ، والايذاء في سبيل الله ، والقتال والقتل ، ويجعل هذه أبرز دلائل الايمان ، وأقرب ما يوصل الانسان الى ثواب الله ورضوانه : « والله عنده حسن الثواب » .

تسليية وتوصية

ثم أخذ يسليهم عما كلفوه من مشاق الجهاد ، ويحذرهم الاغترار بتقلب الذين كفروا في البلاد ، ويؤكد لهم انه متاع قليل ، ثم ماواهم جهنم وبئس المهاد ..

اما المؤمنون الذين اتقوا ربهم فماواهم جنات تجري من تحتها الأنهار .

ثم يرشد — احقنا للحق — الى ان من اهل الكتاب ، الذين يحاربونكم ويناصبونكم العداء ، طائفة تؤمن بالله ، وتؤمن بما انزل اليكم وما انزل اليهم ، خاشعين لله لا يؤثرون دنياهم الفانية على رضا الله الباقي . ويبين ان هؤلاء لهم اجرهم عند ربهم ، وفي هذا اطماع لغيرهم من اهل الكتاب في ان يعدلوا عن موقفهم من المؤمنين ، وأن ينهجوا منهج اخوانهم الخاشعين لله ، المحافظين على حدوده .

ثم تختتم السورة بهذه الوصية الفذة ، التى بها يتحقق الخير كله ، وبها يعظم النصر ويحق الجزاء ، ويتم الفلاح : « يا ايها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

سورة النساء

الربع الأول :

(*) سورة النساء أطول سورة مدنية بعد سورة البقرة ، وهي سورة مليئة بالأحكام التي ينظم بها المؤمنون شئونهم الداخلية ، والأحكام التي يحفظون بمراعاتها وتنفيذها كيانهم واستقلالهم ، ويدفعون بها كيد الكائدين ، وإغارة المحاريين ، وسميت بسورة النساء لكثرة ما ورد فيها من الأحكام التي تتعلق بهن ، بدرجة لم توجد في غيرها من السور ، ولذلك أطلق عليها « سورة النساء الكبرى » في مقابلة « سورة النساء الصغرى » التي عرفت في القرآن بسورة « الطلاق » .

الناس من اصل واحد

وقد افتتحها ببدء الناس كافة ، وأمرهم جميعا بتقوى الله ، وذكرهم في سبيل ذلك الأمر بنعمة الخلق والإيجاد من نفس واحدة « خلق منها زوجها » وكان منها الناس جميعا رجالا ونساء ، وبذلك جمعهم أصل واحد : أبوة واحدة ، أمومة واحدة ، وربطت بينهم رحم واحدة ، هي رحم الانسانية العامة . ثم أعاد الأمر بتقوى الله الذي اليه تفزع القلوب ، وتتوثق العلاقات ، كما أمرهم بتقوى الأرحام التي بينهم والتي ترجع الى أصل واحد ، كانت منه الشعوب ، والقبائل ، والأسر . وقد مهدت بهذا كله للأحكام التي وضعها الله للناس ليحفظ قوتهم وضعيفهم .

رعاية اليتيم

ومن هنا ذكرت أحكام اليتيم الذي فقد أباه ، والسفهاء الذين لا يحسنون التصرف ، والنساء اللاتي تنتظمن ولاية الرجال ، ففى

(*) من أول سورة النساء الى نهاية الآية ١١ .

اليتمى أمرت بحفظ أموالهم حتى يتسلموها عند رشدهم كاملة غير منقوصة ، وحذرت الاحتيال على أكلها عن طريق المبادلة « ولا تبدلوا الخبيث بالطيب » . أو عن طريق الخلط : « ولا تاكلوا أموالهم الى أموالكم » . ووصفت ذلك بأنه اثم كبير . كما أرشدت الى ترك الزوج من اليتامى عند خوف استغلال الحياة الزوجية في أكل أموالهن ، وعدم العدل معهن . وأرشدت الى أن لهم في غيرهن من النساء متسعا للزوج منهن ، واحدة ، ومثنى ، وثلاث ، ورباع .

وذكرتهم في هذه الحالة أيضا بالعدل بين النساء حتى اذا لم يأتس الرجل من نفسه القدرة على العدل بين المتعادات من الزوجات ، وجب عليه الاقتصاد على واحدة ، تنزيها لنفسه ، واستبراء لدينه : « ذلك أدنى ألا تعولوا » . .

تشريع المهور

وبهذه المناسبة أمرت باعطاء الزوجات مهورهن التي أطلق عليها « نحلة » أى مهي ليست أجرا ، ولا ثمنا ، وانما هى عطاء يوثق المحبة ، ويربط القلوب ويديم العشرة .

حفظ أموال اليتامى والسفهاء

وفي جانب السفهاء وهم الصغار الذين لا يعقلون والمجانين والمعاتية ، وكل من لا يحسن التصرف ، حذرت دفع الأموال اليهم إحتفاظا بها لهم ، وإبقاء عليها للأمة . فهى فى الواقع مال الجميع . وأشارت الى تنميتها واستثمارها عن طرق التنبية والاستثمار المشروعة ، وجعلت رزقهم وكسوتهم من أرباحها لا من أصولها ، كما أمرت بمعالجة السفهاء من السفه بارشادهم الى الحكمة وحسن التصرف وفائدة حفظ الأموال . وأمرت بمثل ذلك فى جانب اليتامى : « وابتلوا اليتامى » أى اختبروهم فى المعاملات حتى يتعودوا البيع والشراء . ثم حددت الوقت الذى تسلم فيه الأموال اليهم وهو وقت الرشد ، بعد أن يصلوا الى سن البلوغ ، فمن لم يبلغ لا تسلم اليه أمواله ، ومن بلغ ولم يرشد لا تسلم اليه أمواله . وكانت تلك التعاليم مصدرا لقانون المجالس الحسبية فيما يختص

بالحجر على السفينة ، والقوامة عليه وعلى اليتيم . ثم أباحت الآية للأوصياء أن يأخذوا من أموالهم بقدر كفايتهم إذا كانوا فقراء : « ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف » . ثم ختمت الآيات هذه الأحكام بتهديد الأوصياء في أبنائهم الذين يتركونهم في كفالة غيرهم ، ليفعلوا مع أبناء غيرهم ما يحبون أن يفعل الغير مع أبنائهم ، كما هددتهم بالعذاب الأخرى الذى صورته الآيات بأقوى ما يقلع من النفس جشعها : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم » ، « ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا »

الارث فى الاسلام

وقد كان أهل الجاهلية لا يرثون النساء ولا الأطفال ، ويقولون لا يرث الا من طعن بالرماح وذاد عن الحوزة ، وحاز الغنيمة ، فابطل الله ذلك وجعل الميراث بسببين اثنين : النسب والزوجية ، وبهما عم الرجال والنساء ، والصغار والكبار ، وجاء فى ذلك على وجه العموم .

أولا : قوله تعالى : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا » . .

ثم جاءت آيات الربع الثانى وفيها التفصيل والتصريح بما يعم الرجال والنساء ، والصغار والكبار ، والأزواج والزوجات ، ثم أرشدت الآيات الى مبدأ له أثره العظيم فى تطييب نفوس الذين يحضرون القسمة والتوزيع من الفقراء والمساكين والأقارب الذين لا يرثون ، « وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا » .

وهذه الآية مستند قوى لمن أراد لضريبة التركات مستندا الهيا كريما من كتاب الله ووحيه ، أم المبادئ التى روعيت فى توزيع التركات وتقسيم الميراث ففى قوله تعالى : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين » . .

الربع الثاني :

تفصيل الميراث

(*) بين الله في هذا الربع ، وفي آخر آية من السورة ،
الوارثين والوارثات ونصيب كل وارث بالوصف الذي قرره الله
سببا للاستحقاق ، فذكر الارث بالبنوة ، وبالأبوة ، وبالأومة ،
وبالزوجية ، وبالأخوة وأهل اسندقاق الارث بالتبني الذي كان
معروفا عند الجاهلية . وقد جاء ذلك كله في ثلاث آيات : « يوصيكم
الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين . . . » ، « ولكم نصف ما ترك
أزواجكم . . . » ، « يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة . . . »
وفي هذه الآيات الثلاث بين ميراث الأبناء : « للذكر مثل حظ الأنثيين
فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلهما
النصف » وميراث الوالدين : « ولأبويه لكل واحد منهما السدس
مما ترك إن كان له ولد ، فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه ، فلأمه
الثلث ، فإن كان له أخوة فلأمه السدس » . وميراث الزوج :
« ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد ، فإن كان لهن ولد
فلكن الربع مما تركن » . وميراث الزوجة : « ولهن الربع مما تركتم
إن لم يكن لكم ولد ، فإن كان لكم ولد فلهن الثلث مما تركتم » .
ولا يخفى ما في تقرير الارث بالزوجية من تركيز للأسرة على أساس
قوى في تبادل التعاون والشعور بالمسئولية المشتركة ، حتى كان
الزوجية نوع من النسب والقرابة الأسرية . .

ميراث الأخوة

أما ميراث الأخوة فيتبع جهة الأخوة ، فميراث أخوة الأمومة
ذكر بقوله : « وإن كان رجل يورث كلالة (من لا ولد له ولا والد)
أو امرأة ، وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس ، فإن كانوا
أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث »

وميراث الأخوة الأشقاء ، أو لأب ذكر في الآية الثالثة التي ختمت
بها السورة : « أن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف

(*) من الآية ١٢ الى نهاية الآية ٢٣ من سورة النساء .

ما ترك وهو يرثها ان لم يكن لها ولد ، فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك ، وان كانوا اخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين .

وجدير بالمؤمنين اذا قرعوا هذه الآيات ان يتدبروا قوله تعالى : « يوصيكم الله في أولادكم » ، وقوله : « وصية من الله » ، وقوله : « يبين الله لكم أن تضلوا » وقوله : « تلك حدود الله » ، وقوله : « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين » جدير بهم أن يتدبروا تشديد الله في المحافظة على أحكام الميراث كما بينها بيانا شافيا ، ليس محل اجتهد ، ولا قابلا للتغيير ، فلا يتحدث منهم متحدث بالاستظهار على تشريع الله ، ولا تغيير أحكامه ، وكتاب الله بين واضح ، يتلوه الصغير والكبير ، ويعرف حكمه الفقيه وغير الفقيه .

الارث بعد قضاء الديون وتنفيذ الوصايا

وقد صرحت الآيات بأن تقسيم التركة على المستحقين انما يكون بعد قضاء الديون ، وتنفيذ الوصايا التي لم يقصد بها حرمان مستحق ، أو ابداء وارث ، ومنه يعلم بطلان التصرفات التي تجيء على أساس من حرمان بعض الورثة ، كعادة حرمان الاناث بالبيع الصوري ، أو بالوقف الذي أراح الله الناس منه : « من بعد وصية يوصي بها أو دين غير مضار ، وصية من الله والله عليم حلیم » .

حفظ الاعراض

ثم تنتقل الآيات الى نوع من التأديب لمن يرتكب الفاحشة من الرجال والنساء وهو من قبيل التنبيه على الواجب بعد التنبيه على الحق : ففي فاحشة النساء : « واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فان شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت ، أو يجعل الله لهن سبيلا » . وفي فاحشة الرجال : « والالذان يأتيانها منكم فآتوهما » .

تعزير يؤدي به النساء أو الرجال في فعل الفاحشة الخاصة بالجنس حتى يتوبوا ، والتوبة مقبولة عند الله على وجه اليقين اذا فعل الذنب بدافع من الشهوة أو الغضب ، وسارع المذنب الى

الاقتلاع والرجوع الى الله اما من يفعلها ويرجى التوبة الى ان يحضره الموت ويستشعر مقدماته ، فنوبته مرفوضة قطعاً ، وهى كتوبة الذين يموتون وهم كفار . . اما توبة الذين يفعلون السيئات عن الف واطمنان ، ثم لا يتوبون عن قرب منها ، فالآية لم تصرح بحكم الله فيها ، فهو اليه ان شاء قبلها وغفر ، وان شاء رفضها وعاقب ، فليكن المؤمن منها على وجل : « انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب » ، « وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر احدهم الموت قال انى تبت الان » .

تحذير من عادات جاهلية

ثم تعود الآيات فتحذر من بعض العادات الجاهلية التى كانت تعامل بها النساء : كان الرجل يرث نساء اقاربه ، ويتخذها كالمناخ لياخذ مالها . وكان يضايق زوجته حتى تبذل له المهر الذى دفعه لها ليتزوج به غيرها ، وفى هذا وذاك اجحاف ايها اجحاف بالضعيف الذى لا يملك ان يدفع من نفسه ، وفيه تعريض للحياة الزوجية للاضطراب والتحلل ، وفيه اهمال لحق الرحم الانسانى العام ، وفى ذلك يقول الله : « لا يحل لكم ان ترثوا النساء كرها » ويقول : « وان اردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن نقظا فلا تأخذوا منه شيئا ، تأخذونه بهتانا واثما مبينا ، وكيف تأخذونه وقد افضى بعضكم الى بعض واخذن منكم ميثاقا غليظا » .

الربع الثالث :

المحرمات من النساء

﴿١﴾ والكلام فيه ، لا يزال فى الأسرة ، وفيما يختص بتكوينها ، وترشد الآيات هنا الى اصناف لا يحل للتزوج بهن ، ولا تكوين الأسرة منهن ، وذلك لما بينها وبين الرجل من صلات لا ينبغى تعريضها للفساد ، ويجب ان ترفع عن مزالق الحياة الزوجية . ومن هنا حرم التزوج بحلائل الآباء ، وقد كان العرب يفعلون ذلك ، وقال فيه

﴿٢﴾ من الآية ٤٤ الى نهاية الآية ٣٥ من سورة النساء .

القرآن : « انه كان فاحشة ومقتنا وساء سبيلا » ، وحرّم التزوّج بالأمّ وان علّت ، والبنت وان نزلت ، والأخوات ، والعَمات ، والخالات ، وبَنات الأخ ، وبَنات الأخت ، وحرّم بسبب طاريء وهو الرضاع المكون للبنية مثل ما يحرم بالقربة . واقتصرت الآية على الأمهات والأخوات ، وجاء في السنة الصحيحة : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » وحرمت أم الزوجة وان لم يكن الرجل دخل بينها ، وحرمت بنت الزوجة اذا كان الرجل قد دخل بأمها . وحرمت حلّائل الأبناء الذين هم من الأصلاب ، وحرّم تحريما مؤقتا الجمع بين الأختين ، ومن في معناهما ، كالمرأة وعمتها وخالتها ، وحرمت المتزوجات واستثنت الآية منهن المهاجرات المؤمنات اللاتي تركن أزواجهن الكفار ، وتبين صدق إيمانهن : « فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار لا هن حلّ لهن ولا هم يحلون لهن ولا جناح عليكم أن تنكحوهن اذا آتيتوهن أجورهن » .

ثم صرحت الآيات بحل ما وراء هذه المحرمات ، مشيرة الى فائدة الزوّاج من احصان الرجال والنساء ، والبعد عن المسافة والمخادنة كما أوجبت بذل المهور . وأشارت الى لزوم تخير الزوجات من العناصر الطيبة وهي الحرائر المؤمنات ، ومنعت التزوّج من غيرهن الا عند العجز مع خوف العنت والمشقة ، والوقوع في الفاحشة ، ومع ذلك فقد قال الله تعالى : « وأن تصبروا خير لكم » . وذلك محافظة على البيئة الصالحة التي يكون منها النسل ، ويتربى فيها .

النهي عن اكل اموال الناس بالباطل

ثم عرضت الآيات بعد أن أرشدت الى الهدف من هذا التشريع وهو الهداية الى سبيل السعادة والبعد عن حياة الشهوات والمفاسد ، عرضت الى العنصر الثاني في حياة الأسر والجماعات وهو « المال » فنهت عن اكله بالباطل ، والباطل كل ما لم يكن سببا مشروعاً في حل الأموال كالسرقة ، والغصب ، والرشوة ، وأجرة البغاء ، والربا ، وما الى ذلك مما نهى الله عنه وله اثره السيئ في سلالة المجتمع . ولما كان الاعتداء على المال ، من وسائل الاعتداء على النفس جاء في هذا المقام قوله تعالى : « ولا تقتلوا أنفسكم » ، وتوعدت الآيات بأشد العذاب من يعتدى على أخيه في ماله أو نفسه ، كما وعدت بتكفير صفائر الذنوب اذا ما اجتنبت هذه الكبائر : « ان تجتنبوا

كبائر ما تنهون عنه تكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما .
ولما كان معظم اسباب الاعتداء ، تطلع القتل الى ما بيد المكر ،
وتمنى ان يكون ما في يده غيره في يده نهى الله عن ذلك وبين ان
لكل كاسب وعامل ثمرة عمله وكسبه فليستغل كل انسان مواهبه
وقدرته في الكسب والعمل : ولا يتطلع الى شيء غيره : « ولا تتمنوا
ما غفل الله به بعضكم على بعض . للرجال نصيب مما اكتسبوا ،
ولللنساء نصيب مما اكتسبن . واسألوا الله من فضله » .

اما المال الذى يورث ولا يكتسب بالعمل فقد بينت الآيات
المسنحتين فيه وانصباهم على حسب ما يعلم الله من مصلحة
عباده ، وهم اصحاب القرابة والزوجية ، فحافظوا على قاعدة
الكسب ، وحافظوا على قاعدة التوزيع ، ولا يعتد بعضكم على بعض
لا في كسبه ، ولا في ميراثه : « ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان
والاقرابون والذين عقدت ايمانكم فآتوهم نصيبهم » .

قوامة الرجل

ولما تضمن تشريع الله للرجال والنساء تفاوتاً في الأعمال
والانصبا ، وكان ذلك مبعثاً لفكرة التسوية عند من لا يحكمون
الطبيعة ولا يفهمونها ، بينت الآيات ان الحكمة في ذلك ترجع الى
طبيعة كل من الرجل والمرأة . فكلف الرجل ، بما له من قوة ، بالجهاد
والاعمال الشاقة ، ومنع بما عليه من تبعات مالية وغيرها نصيباً
اكثر من نصيب المرأة ، وبهذا وذاك كانت له القوامة عليها :
« الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض
وبما أنفقوا من اموالهم »

معنى قوامة الرجال

ثم ارشدت الآيات الى ان تلك القوامة ليست قوامة استعباد
وتسخير وانما هى قوامة رئاسة ونصح وتاديب ، كالتي بين الرجل
وابنائه ، والراعى ورعيته . ومن هنا لم يكن لتلك القوامة اثر بالنسبة
لصنف الصالحات القانتات ، وانما كان اثرها بالنسبة لمن يظن فيها
النشوز والانحراف ، وبها كان الوعظ والتاديب الذى يجرى فيها بين
الرجل وابنائه : « فان اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » . وكان
اذا ما اشتد النشوز ، ووصل الى الشقاق والخلاف الحاد ، انتقل
العلاج من التاديب الذى يباشره الزوج الى التحاكم عند الاهل والاقارب

الذين يهمهم شأن الزوجين ، ويعز عليهم أن تتدهور الأسرة ، ويتشرد الأطفال .. وبقدر نية المحكمين ، وأخلاصهم في ارادة بعث الحياة الطيبة بين الزوجين ، يسدد الله خطاهم ، ويمنحهم من الوسائل ما يعيدون به الى البيت هدوءه واستقراره .

« وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ، ان يريدوا اصلاحا يوفق الله بينهما ان الله كان عليما خبيرا »

الربع الرابع :

الاحسان في كل شيء

(*) الكلام فيه يتجه الى حفز النفوس نحو العمل بالأحكام التي بينها السورة فيما يختص باليتامى والأسر وتكوين البيوت ، وذلك عن طريق التوجيه الى الاحسان العام ، والى أن سعادة المؤمن ليست معقودة بالاحسان الى أسرته وأقاربه فقط ، وانما ترتبط بالاحسان الى كل ما يحتاج الى الاحسان .

ومن هنا أمر بالاحسان في عبادة الله وهي أصل الخير كله ، والاحسان فيها أفرادها بالعبادة والتقديس ، دون أن يكون لغيره شركة ما فيها هو من خصائص الألوهية ، ثم ذكر الاحسان الى الوالدين لأنها عماد الأسرة ، وفيها يشب المرء على الاحسان ، ثم يمتد الاحسان منها الى الأقارب والجيران والأصحاب ، والى كل أرباب الحاجات ، وبهذا ترتبط وحدات الأمة على أساس من الرحمة ، وتصبح تلك الوحدات أسرة واحدة ، متعاونة في السراء والضراء فيتحقق الرحم الانساني العام الذي افترحت بتقريره بين الناس ، ولفت النظر اليه ، سورتنا الكريمة .

ثم تشير الآيات الى ان التقصير في هذا الحق الاجتماعي شأن صنفين من الناس : صنف يخال ويتكبر ولا يرى لغيره حقا عليه ، فيبخل بنعمة الله على عباده ، وبذلك يشيع خلق البخل بين الناس ، فيبخلون كما يبخل ، ويتقطع ما بينهم من صلوات ، وتحدث بينهم الضغائن والاحقاد : « الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون

(*) الآيات من ٣٦ الى نهاية الآية ٥٧ من سورة النساء .

ما آتاهم الله من فضله » . وصنف يتعاضم على الناس فيحسن اليهم ، ولكن ابتغاء مدحهم اياه ، وتعظيمهم له ، دون أن يدفعه الى ذلك شعور بحق ، أو ايمان بالله : « والذين ينفقون أموالهم رياء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » . ثم يسجل القرآن على هذين الصنفين ، ان الذي أغراهم بالبخل والرياء على هذا الوجه ، الذي يدل على حرمان النفس من الفضيلة ، انما هو الشيطان ، منبع الشر والرديلة : « ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا » ثم تثير الآيات عجب الناس من هؤلاء في اعراضهم عن الايمان بالله واليوم الآخر ايماناً يدفعهم الى القيام بالحقوق ، والاخلاص في ادائها على وجه يغرس الفضيلة في نفوسهم ، ويكفل لهم ثواب الله ورضاه ، مع انهم لو اخلصوا لما ماتهم شيء مما يحبون ، ولحصلوا في الآخرة على النعيم الدائم والجزاء الحسن : « ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها » ، وكيف يكون حال هؤلاء يوم يجمع الله الناس ويشهد على كل أمة رسولها ؟ . . « يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا » .

علاج لادواء النفوس

ثم تسوق الآيات للمؤمنين علاجاً من شأنه اذا قاموا على وجهه هذب نفوسهم ، وطهر قلوبهم ، فلا تعرف الى البخل ولا الى الرياء سبيلاً ، ذلكم العلاج هو « الصلاة الخاشعة » عصمة الانسان من الفحشاء والمنكر « ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا ، واذا مسه الخير منوعا الا المصلين » . وارشدتهم في ذلك الى تدبرها واستحضار عظمة الله فيها : « لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » . ثم تلفت الأنظار الى تطهير الظاهر حتى تلتقى طهارته مع طهارة الباطن : « وان كنتم جنبا فاطهروا » . وتذكر بنعمة الله عليهم في الاكتفاء بالطهارة الرمزية ، وهى طهارة التيمم حين لا يقدر على الطهارة الحقيقية ، وهى طهارة الماء . ثم تعرض الآيات بعد ذلك لحالة طائفة يعلم المؤمنون من أمرها ما يعلمون ، من الاعراض عما آتاه الله من أحكام وهداية ، وتحريف الكلم عن مواضعه ، واتخاذها لانفسها من عناوين التزكية كابتناء الله وأحبابه ، وما يوهمون به انهم في غنى عن العمل بنصيبيهم من كتاب الله وشرعه ، وفي اثناء ذلك تهددهم الآيات بقوله تعالى :

« يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها ، أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت » .

هذا ما يلفت الله نظر المؤمنين إليه في وجوب الأخذ بأحكامه ، وعبرتنا منه أن نرتفع بأنفسنا عن مواطن الذين ييخلون والذين يراعون ، ونعصم أنفسنا عن مسايرة هؤلاء في تحريف الكلم عن مواضعه ، واشتراء الضلالة ، وتزكية النفس بمجرد النسبة إلى الرسول أو الاسلام ، فعلى هؤلاء الذين ينتمون إلى كتاب الله ، ويقولون نحن مسلمون لله ، أن يتدبروا هذا التهديد الإلهي ، وأن يعلموا أن هذا التهديد سنة الله مع كل من أعرض عن ذكره ، وأن ينفذ شرعه وأحكامه ، وحرف كلمه عن مواضعه ، ثم عليهم أن يستمعوا إلى وعيد الله لمن حاد عن طريقه : « ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا ، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » . ثم إلى وعده لمن التزم حدوده وأحكامه : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا » . .

الربع الخامس :

الإمانة والعدل

(*) والكلام فيه لا يزال في التشريع الداخلي الذي يحفظ على الأمة استقرارها وهدوءها . وقد أرشدت الآيات هنا إلى أن أساس الانتفاع بهذه الأحكام أمران لا تسلم أمة ولا تسعد إلا بهما : الحرص عليهما ، وهما أساس الحكم الصالح ، وسبيل الحياة الطيبة : أداء الأمانات إلى أهلها ، والعدل في الحكم بين الناس . والأمانة اسم للحق الذي أودع عند الإنسان ، وكلف حفظه ليوصله إلى صاحبه الذي يملكه ، أو الذي ينتفع به ، فيشمل المال ، وأداؤه تسليمه كاملا غير منقوص ، والعلم ، وأداؤه تعليمه على وجهه الصحيح ، والرأي ، وأداؤه إبداءه لمن يحتاج إليه ، أو لمن

(*) الآيات ٥٨ إلى نهاية الآية ٧٣ من سورة النساء .

بيده التنفيذ ، وإداء الأمانات يتناول تيسير طرق الوصول إليها ، كنشر الكتب المهدية التي ينتفع الناس بها في دينهم ودنياهم : وتنقية التعاليم الدينية من البدع والخرافات والأساطير التي تفسد على الناس دينهم وتصورهم . كما يتناول تنظيم الطرق الزراعية ، وحفر الترعة : وإنشاء المصانع ، كل ذلك مما يجب على الراعى تسهيله للرعية وهو أمانة في عنقه . .

أما العدل في الأحكام فيرجع الى تحرى الحق بوسائله ، والبعد عن الهوى والشهوة ، وقد أرشدت الآيات الى أن سبيل الأمانة والعدل إنما هو طاعة الله المشرع . والرسول المبين ، وأولى الأمر ، القائمين على حدود الله ، الذين هم من الأمة ، يحسون احساسها ، ويهتمون بخيرها وسعادتها « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » .

ثم تلت الآيات انظار المؤمنين الى طائفة تثبت فيما بينهم ، تظهر ايمانها بشخصية الأمة ، وقلوبها تنكرها ، يزعمون أنهم يؤمنون بدين الأمة وقانونها ، وهم في الواقع ينطوون على ارادة التحاكم الى غير دينها الحق تبعاً لشياطينهم ، وسيراً مع أهوائهم : « وإذا قيل لهم نعالوا الى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً » .



وهذه نابتة السوء ، وجراثيم الشر ، يختبر الله بها كل أمة ، فأحذروهم واحذروا طريقتهم التي تفسد عليكم أهلكم : « أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظّمهم وقتل لهم في أنفسهم قولا بليغا » .

الا وإن هؤلاء لا يقام لهم وزن عند الله ، ولا تحفظ لهم كرامة الا اذا تابوا وطهروا أنفسهم من رجس النفاق ، وتعاونوا معكم على السر والتتوى ، وخضعوا لأحكام الله ، واتخذوها حكماً فيما ينشأ بينهم من خلاف أو يعرض لهم من حاجة : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » .

ثم تلتفت الى أولئك المنحرفين وترشدهم الى ما فيه خيرهم من

الامثال لما يلقي عليهم من احكام الايمان ، والانتفاع بثمراتها الطيبة :
 « ولو انهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم واشد نتيجا . واذا
 آتيناهم من لدنا اجرا عظيما ولهديناهم صراطا مستقيما » . ثم نختم
 الآيات هذا التشريع الداخلى الذى تحدثت فيه من اول السورة ،
 تختمه بوعده كريم لمن يطيع الله والرسول فيه ، وتعددهم برفع مكانتهم
 الى مستوى الذين أنعم الله عليهم من عباده الاخيار « النبيين »
 والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا » .

الاستعداد للامن الخارجى بعد الداخلى

ثم تأخذ الآيات فى الارشاد الى ما يتوقف عليه استقرار الأمة
 من جهة خارجيتها ، فتأمر بأخذ العدة والاستعداد الدائم لمكافحة
 العدو الطارئ عليها ، المقتصب لها ، وتأمر بتطهير الأمة من
 عناصر الفساد والتخذييل التى تنبت منها وفيها ، وتربط حبالها بحبال
 أعدائها ، وتعمل فى سرها على تمكين العدو من بلادها .

ثم تعرض الآيات فى سبيل طويل للتعامل فى سبيل الله وفى سبيل
 المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، وترشد الى ما يتوقف
 عليه النصر ، معلية فى ذلك كله شأن الذين يقاتلون فى سبيل الله ،
 الذين يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة ، ويضحون بأنفسهم وأموالهم فى
 اعلاء كلمة الحق ، ورد كيد الغاصبين المبطلين : « يا أيها الذين
 آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا وان منكم من
 ليبطئن فان أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله على اذ لم اكن معهم
 شهيدا ، ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه
 مودة ، يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما » .

سورة الأنعام

الربع السادس :

تعامى المعاندين عن الحجج

(*) قال تعالى : « ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون » .

هذا هو الربع السادس من سورة الأنعام ، وسورة الأنعام ، هي سورة الحجاج العقلى بين الحق والباطل ، وقد سلكت في حجاجها طريق الحكاية والتلقين ، تحكى بكلمة « قالوا » أو نحوها شبهة المبطلين ، وتلقن بكلمة « قل » ونحوها الحق وحجته . ومن شأن المبطلين في كل زمان ومكان ، أن يتعاموا عن حجة الحق الواضحة ، ويلتمسوا — تبريرا لعنادهم وامراضهم — حجة ليؤمنوا بها ، ويقسموا أنهم أن جاءتهم حجة ظاهرة ليؤمن بها . والواقع أن كفر المعاندين لم يكن ناشئا عن عدم الحجة ، وإنما هم بذلك لاتنفعهم حجة ، ولا يؤمنون ببرهان ، وأنه مهما سيق إليهم من حجج ، وهىء لهم من دلائل غائبة لا يؤمنون لا إذا سلخوا سنة الله في إيمان من يؤمن فطهروا قلوبهم من الحقد والحسد ، واقبلوا على النظر البريء فيما يدعون إليه « ولكن أكثرهم يجهلون » يتمكن الجهل والسفه من قلوبهم فيمنعهم أن يسلكوا طريق الهداية والإيمان .

وان واجب أهل الحق بالنسبة إليهم أن يعرفوا أن عداوتهم للحق ناشئة من نفوسهم وليست ناشئة من عدم الحجج المقنعة ، فلا يهتموا بشأنهم ، ولا يكثرثوا بما يقترحون من حجج وآيات : « وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » .

(*) الآيات من ١١١ الى نهاية الآية ١٢٦ من سورة الأنعام »

واجب الدعاة

وليعلم أهل الحق أن سنة الله جرت مع كل نبي وكل داع ، أن يثبت لهم أعداء يقفون أمام دعوتهم ويعملون جهدهم في صرف الناس عنها وما على هؤلاء الدعاة إلا أن يصبروا ويصابروا ، ويعصموا أنفسهم واتباعهم من الاغترار بزخرف قولهم وفاسد وحيهم حتى يأتيهم نصر الله ، وتكون العقوبة للصابرين « وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن » ، ولقد كان في قدرة الله أن يسلبهم قوة المعارضة ، ولكن لم يشأ ذلك تحقيقا لحكمة الابتلاء ، وتصحيحا لقانون المحاسبة والجزاء « ولو شاء ربك ما لمعهوه » . .

وافن فوجب على دعاة الحق أن يتركوهم وأن يعتصموا بالحق الذي معهم وتشهد بصحته فطهرهم وضمايرهم ، كما يشهد بصحته التاريخ الحق لآخوانهم السابقين : « أفغير الله ابتغى حكما وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلا ، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين » .

فليعتصموا بحقهم ، وليتقوا بسنة الله معهم في النصر والتأييد ، وبسنته مع أعدائهم في الهزيمة والخذلان « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته » وليحذروا الاستماع إليهم ، والتأثر بما ينفثون من سموم : « وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله » ، « وأن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ، وإن أطعتوهم - في عقيدة أو عمل - أنكم لمشركون » .

أعداء الحق

وتد جرت سنة الله أيضا أن يجعل أعداء الحق في كل أمة « أكبر مجرميها » أرباب الرئاسة والجاه والسلطان ، وأنهم هم الذين يضطربون لصوت الحق ، ويخافون سطوته ، وهم لذلك يعملون جهدهم في وضع العقبات ، وفي الكيد لأرباب الحق ، ولكنهم في سنة الله لا يملكون إلا بأنفسهم وسيرون حتما ذلتهم وعزة الضعفاء حينما تدور عليهم الدائرة ، وينزل بهم القضاء على أيدي هؤلاء الضعفاء : « وكذلك جعلنا في كل قرية أكبر مجرميها ليمكروا فيها وما يملكون إلا بأنفسهم وما يشعرون » .

بهذا مضت سنة الله في الأولين ، وتبضى به في الآخرين ، وبه

يسجل الله الصغار والذل على المبطلين ؛ الذين يكيّدون للحقّ ويصرفون الناس عن الحقّ « سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون » ، أما من يطهر قلبه من دواعي الاجرام ونوازع النفس الخبيثة ، ويستقبل الحق بقلب نقي فإنه يدخل في رحمة الله ؛ وينعم بنفسه وهدايته .

« وهذا حراط ربك مستقيها قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون » .

الربع السابع :

مهتد وضال

(*) يواصل هذا الربع الحديث عما يكون من شأن المهتدين الذين ظهرت تلويهم من الموروثات الفاسدة ، ونظروا في أدلة الحق . فانشرحت به صدورهم وسلوكوا طريق الله المستقيم . ومن شأن الضالين ، الذين تحجرت قلوبهم فلم ينفذ اليها شعاع الحق ، وظلوا في كفرهم يعمهون ، فيذكر بالنسبة للمهتدين . « لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون » .

ويصور بالنسبة للضالين بعض مواقف الحشر والحساب ، التي يتجلى فيها أن سبب ضلالتهم هو فتنة بعضهم ببعض ، واستجابة الاتباع لأغراء المتبوعين ؛ ويتجلى فيها تحسر الاتباع على السير وراء المتبوعين ، والتي تقطع عليهم فيها أذارهم ، ويذكرون برسول الله وآياته ، فيشهدون على أنفسهم بالكفر ، ويعترفون أن الحياة الدنيا هي التي غرتهم ، وصرفتهم عن الإيمان بالرسول ، وعن النظر في الآيات : « يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس ، وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض » ، « يا معشر الجن والإنس ، ألم ياتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، قالوا شهدنا على أنفسنا » .

شبيه الشيء منجذب إليه

وعندئذ يصدر على الجميع ، ضالين ومضلين : « النار

(*) الآيات من ١٢٧ الى نهاية الآية ١٤٠ من سورة الأنعام »

مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله . وفيما بين هذا التصوير الآخذ بالنفوس .والذى يعبر تعبيرا قويا عن علاقة الاتباع بالمتبوعين فى الدنيا والذى يوضح أن ضلال الفريقين انما جاءهم من قبل أنفسهم ، سيرا وراء الهوى والشهوة ، لا من قبل الله بحكم قاهر لا مفر منه .

فيما بين هذا التصوير ، تقرر الآيات سنتين من سنن الله فى خلقه ، تختص احدهما بالضلال والاضلال ، وهى أن النفوس المتشابهة فى عوامل الاعراض عن الحق يميل بعضها بحكم المشكلة الى بعض ، تلتقى رغباتهم واهواؤهم ، فتلتقى عقائدهم وخططهم ، فيتعاونون ، ويتناصرون ، ويتبع بعضهم بعضا « وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون » .

الجزء بعد الانذار

وتختص السنة الاخرى بشأن الله فى الحساب والجزاء ، وهى أنه ليس من شأنه سبحانه أن يعذب الامم بما يشيع فيها من مظالم ، وينتهك فيها من حق ، قبل أن ينذرهم ويرشدهم ، ويبعث فيهم من يدعوهم الى صراطه المستقيم ، لئلا تكون لهم حجة ، ويقولوا : « ما جاءنا من بشر ولا نذير » ، « ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون » .

سر التكليف والاختيار

ثم تبين الآيات أن هذه السنن التى يعامل الله بها عباده فى الضلال والهدى ، والانذار والتبشير ، والحساب والجزاء — لم تكن ليسد بها حاجة له سبحانه ، فهو الرب الغنى الذى يحتاج اليه كل من سواه ، وانما هى من رحمته بعباده ليظهر فيهم المحسن من المسئء ، ويمتاز بها الخبيث من الطيب ، ويحظى كل عامل بنتيجة عمله ، ولو شاء سبحانه لأذهب العصاة المارقين ، وأتى بقوم يحبه ويحبونه ، يطيعون ولا يعصون ، ولكن قضت حكمته بتنظيم الكون على هذه السنن ، تحقيقا لقاعدة التكليف والاختيار ، واظهارا لفضل العقل الذى فضل به الانسان على غيره من سائر المخلوقات ..

إذا خست العقيدة ساء السلوك

ولما كانت العقائد الفاسدة يتبعها دائما احكام فاسدة وتصرفات منحرفة ، أخذت الآيات تبكت الضالين في عقائدهم ، على بعض تصرفاتهم التي كانت أثرا من آثار كفرهم بالله ، واعراضهم عن شرائعه واحكامه ، فذكرت تصرفهم بالتحليل والتحريم في الحرث والانعام ، تصرفا لم يأذن به الله ، ولم يكن في طبائع الاشياء ما يسمح به أو يبرره : جعلوا منها نصيبا لشركائهم ، ونصيبا لله ، وبعد هذا يأخذون مما جعلوه لله ويضيفونه لما جعلوه للشركاء ، وخصصوا بعض الانعام والحرث لمن يشاءون ، وحرموها على من يشاءون . . حرموا ظهور بعض الانعام ومنعوا أن تركب أو يحمل عليها وأكلوا ما ذبحوه باسم الاصنام والشركاء ، وحرّموا ما ذكر اسم الله عليه ، وهكذا حتى امتد سوء تصرفهم الى اولادهم فتقربوا بقتلهم الى المعبودات .

وعبرتنا في ذلك : أن التشريعات والتصرفات التي لا تؤسس على الايمان بالله وشرائعه لابد أن تكون عاقبة اهلها الخسران والدمار ، فليعتبر هؤلاء الذين يجعلون لغير الله نصيبا فيما خلق والذين يحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل ابثغاء شهوة أو تقليد ، والذين يعملون جهدهم في افساد نطف النسل الذي به يعمر الكون ، وتظهر به أسرار الله في خلقه ، وليقرعوا جميعا قوله تعالى :

« قد خسر الذين قتلوا اولادهم سفها بغير علم وحرّموا ما رزقهم الله اغتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين » .

الربع الثامن

نعم الله دلائل وحدانيته

(*) وفي هذا الربع تعود الآيات فتذكر أدلة التوحيد الماثلة في نعم الله التي يتقلب فيها عباده ، والتي يسدون بها حاجاتهم ، ويمتعون

(*) الآيات من ١٤١ الى نهاية الآية ١٥٠ من سورة الانعام .

بلذائذها انفسهم .. يذكر من ذلك الزروع ويذكر الانعام ، ويلفتهم الى ما في الزروع والاشجار من ثروة نباتية ينتفعون بأخشابها في مهامهم ، وبثمارها في طعامهم ، والى ما في الانعام من ثروة حيوانية ، لهم فيها دفاء ومنافع ومنها يأكلون : « وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات » . « ومن الانعام حمولة وغرشا ، كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين » . كلوا من الانعام ، كما تأكلون من الزروع والثمار فالكل مما أنعم الله به عليكم ، وأحل لكم ، وان التفريق بين ما أحل الله بتحليل البعض وتحريم البعض ، خروج عن قضية التسوية بين المتماثلات فى الطبيعة والحكم ، واقتراء على الله بالتحليل والتحريم ولا يملك التحليل والتحريم سواء « قل الفكرين حرم أم الانثيين أما اشتملت عليه أرحام الانثيين ، أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا »

أربعة اطعمة محرمة

لم يحرم شيئا من هذا ، وما كنتم شهداء إذ حرم . وانما هو افتراء وتضليل « فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم » . ان الله لم يحرم شيئا من الزروع ، ولا من الانعام ، وانما الذى حرم ان يطعم هو الميتة ، والدم المسفوح ، ولحم الخنزير ، والفسق الذى أهل به لغير الله . وقد حصر الله ما حرم من طعام فى هذه الأصناف الأربعة ، وقد جاء ذلك الحصر فى سورتنا بقوله : « قل لا أجد فيها أوحى الى محرما على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير ، فانه رجس ، أو فسقا أهل لغير الله به » وجاء ذلك الحصر مرة أخرى فى سورة النحل بصيغة : « انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به » . وسورة الانعام ، وسورة النحل مكتبتان ، ثم جاء ذلك الحصر مرة ثالثة فى سورة البقرة على نحو ما جاء فى سورة النحل « انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله » ثم جاء مرة رابعة فى سورة المائدة : « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به » وكان ذلك بعد قوله : « أحلت لكم بهيمة الانعام الا ما يتلى عليكم » . وسورة البقرة ، وسورة المائدة مدنيتان . والمائدة بعد ذلك من أواخر القرآن نزولا . ومن هنا يتبين ان حصر المحرمات من الطعام فى هذه الأربعة ، هو ظاهر القرآن الكريم .

شبهتان مردودتان

وتعرض الآيات بعد هذا الى شبهتين . كان يتذرع بهما القوم في أصل التحريم . وفي عدد المحرمات ، فكانوا يقولون : لو كان دين الله حصر التحريم في هذا الأربعة فكيف حرم على بنى اسرائيل كل حيوان ذى ظفر ؟ وحرم عليهم بعض شحوم البقر والغنم ؟ . . . ويجب الله عن هذه الشبهة بأن تحريم ذلك على بنى اسرائيل لم يكن شرعا وانما كان ابتلاء وعقوبة «كل لطعام كان حلالا لبنى اسرائيل» «ذلك جزيناها ببغيتهم وانا لصادقون» . وكانوا يقولون في أصل التحريم والشرك ، وما ورثوا عن الآباء من عقائد وشرائع فاسدة : «لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمانا من شيء» يريدون ان الله رضىه وامره ، او انهم كانوا مجبورين عليه بقره الذى لا يستطيعون التخلص منه ، وتلك شبهة لا تزال عالقة بالنفوس يعتذر بها المفسدون ، ويجادل بها المبطلون ، والله يجب عنها بأن امثالهم السابقين كذبوا الرسل فاشركوا وحرموا ، واعتذروا بالمشيئة كما يعتذرون ، فعاقبهم الله على شركهم ، ولم يكثر باعذارهم ، فلو كان حقا ما قالوا لما عاقبهم «كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بآسنا» ثم طالبهم بما يثبت رضا الله بالشرك والتحريم او بما يثبت قهرهم على ما هم عليه : «قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن ، وان أنتم الا تخرصون» . . . واذ لا علم عندكم فلا تتبعوا أهواءكم واتبعوا ما أنزل الله اليكم : «قل قلله الحجة البالغة» . . .

الانسان مختار غير مقهور

كلفكم ووعد وأوعد ، وترككم كما خلقكم ، مختارين غير مقهورين ولا مجبورين ، ليكون للمحسن احسانه ، وللمسيء اساءته ، ولو شاء لتقهركم على الطاعة فلا تقدرّون على العصيان ، او تقهركم على العصيان فلا تقدرّون على الطاعة ، وعندئذ لا تكونون من النوع الذى أعدّه للخير والشر ، وهدهاء النجدين . ثم يستنهض همتهم في استحضار من يشهد لهم بما يقولون ، ويحذر النبى صلى الله عليه وسلم واتباعه من السير في طريق شبههم الضالة :

« ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون » .

الربع التاسع :

(*) عرضت سورة الأنعام لكثير من أدلة التوحيد والرسالة والبعث ، ودفعت كثيرا من الشبه التي كان يثيرها خصوم الدعوة عليها وعلى الدعاة ، وبينت في سبيل تسلية الرسول وصحبه جملة من سنن الله في الاضلال والهداية ، وفي معارضة الباطل للحق حتى أوفت في ذلك كله على الغاية ، وأخيرا ختمت بهذا الربع : « قل تعالوا آتئنا ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا ، وبوالدين احسانا » . . . الآيات . فركزت الدعوة في أمهات الفضائل ، وأسس الخير للفرد والجماعة ، ففى جانب العقائد :

« الا تشركوا به شيئا » ، فله وحده العبادة ، وبه وحده الاستعانة ، ومنه وحده الخوف والرجاء ، وله وحده التحليل والتجريم .
وفى جانب العمل :

« وبوالدين احسانا » . فمنهما نشأ الانسان وفى أحضانها تربي ، والاحسان اليهما اعتراف بالنعمة وتقدير للجميل : « ولا تقتلوا اولادكم من اmlاق » . فالولد ثمرة الحياة ، وحلقة فى سلسلة النوع الانسانى ، وفى حكم قتلهم العمل على منعهم حيث لا ضرورة تدعو اليه ، واهمال تربيتهم ، أو تنشئتهم على بغض بلادهم ودينهم . .

« ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق » . فالاعتداء عليها هدم لعبارة بناها الله ، واعتداء على خلافة أراده الله . نعم . أهترت عصمة النفس البشرية اذا اعتدت على أخت لها بريئة فقتلتها ، أو على نظام الله العام محاربته ، أو على جماعة المسلمين فناصرتها العداة .

« ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط » . فالأموال صنو النفس ، وعنصر

(*) الآيات من ١٥١ الى آخر سورة الأنعام .

الحياة . والاعتداء عليها اعتداء على الحياة ، وقد خص بالذكر
« الأكل » عن طريق استضعاف المالك كاليقيم ، وعن طريق الاختلاس
في المعاملات التي لابد للناس منها ، وهو طريق البيع والشراء .
« ويل للمطففين .. » .

وفي جانب القول :

« وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا » .
العدل ، والوفاء بالعهد قطبا النظام ، فلا عمران مع الظلم ، ولا نظام
مع المحسوبية ، ولا ثقة مع نقض العهود . وإهمال شرع الله
نقض لعهد الإيمان ، والاخلال بالالتزامات نقض لعهد الانسان .
وتبديل حكم الله نقض لعهد الله ولا حياة لأمة عرفت بنقض العهود ..

« وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق
بكم عن سبيله » جمع الكلمة وارتباط القلوب حول تركيز شرع الله
اعتصام بحبل الله ، وسبيل للخير والفلاح . والتفرق غول الأمم ،
ومورد التهلكة .

وصايا الهية

تلك وصايا الله ، بعث بها كل رسول ، وأنزل بها كل كتاب ..
فهى شرعه الدائم ، وصراطه المستقيم ، جاء بها كتاب موسى ،
وجاء بها القرآن الكريم ، ليؤكد الملاحق السابق : « ثم آتينا موسى
الكتاب تماما على الذى أحسن » ، « وهذا كتاب أنزلناه مبارك
فاتبعوه واتقوا لعلمكم ترحمون » . والأمراض عنه تكذيب بآيات
الله وسبيل لغضب الله ، والتفرق فيه تضييع لأمانة الله : « أن
الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شيء ، إنما أمرهم
الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون » .

ثم تختتم السورة بأمرين عظيمين ، يرجع أحدهما الى تقرير الدعوة
فى نفسه صلى الله عليه وسلم تقريراً يحس به وجدانه ، ويتجلى
به ظاهره ، ويمتلئ قلبه ببرهانه المادى والتاريخى : « قل اننى
هدانى ربى الى صراط مستقيم ، ديناً ممتبها ملة ابراهيم » « قل ان
صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين » ، « قل أغفر
الله أبغى ربا وهو رب كل شيء » .

وتقرير الدعوة على هذا الوجه له من الأثر في قوة الداعي ،
وفي تبديد شبه المعارضين ما يركز للحق سلطانه ، ويرمى بجمه
المعارضة الى مكان سحيق ..

أما الخاتمة الثانية والآخرى فهي إرشاد الإنسان الى مكانته
التي أعدها الله له في هذه الحياة ، تلك المكانة التي تمثلها خلافته
في الأرض ، وأن الله جعل عمارة الكون تحت يده وبعمله ، تتعاقب
عليه أجياله ، ويقوم اللاحق في ذلك مقام السابق ، وأن الله سبحانه
قد غاوت في المواهب ليظهر من يحسن في الخلافة فيكون له من
الله مغفرة ورحمة ، ومن يسيء فيكون له من الله شديد العقاب :
« وهو الذي جعلكم خلائف الأرض، ورفع بعضكم فوق بعض درجات
ليبلوكم فيما آتاكم ، أن ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم » .

سورة الأعراف

الربع الأول :

مهمة التنزيل المكي

(*) سورة الأعراف أول سورة طويلة نزلت من القرآن الكريم ، وأول سورة عرضت للتفصيل في قصص الأنبياء ، وهي أطول سورة في المكي ومهمتها هي مهمة المكي : تقرير التوحيد . ربوبية ، والوهمية ، وتشريعا ، وتقدير البعث والجزاء ، وتقدير الوحي والرسالة . وتلك هي أصول الدعوة الدينية التي كانت لأجلها جميع الرسائل الالهية . .

واجب الداعي وحقه

نوهت بشأن الكتاب ، وأرشدت الى الغاية التي لأجلها أنزل ، والى ما يجب على الرسول بصفته الداعي أن يطرده عن قلبه حتى يقوى في الدعوة ويقوم بالمهمة التي القيت على كاهله : « كتاب أنزل اليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين » ، فعلى دعاة الخير أن يتسلحوا بالهدوء والاطمئنان . وعلى الناس أن يوفروا عليهم راحة الضمير ، ألا يضعوا امامهم العقبات التي تخرج الصدور ، وتقبض النفوس ، وقد أجملت السورة دعوتها الى هذه الأصول في آية واحدة ، تحمل الأمر بناحية الإيجاب ، وتحمل النهى من ناحية السلب ، فطلبت اتباع ما أنزل من عقائد وأخلاق وأعمال ، ونهت عن اتخاذ أولياء من دون الله ، يرجع اليهم في التحليل والتحريم ، أو يقصدون بالعبادة والتقديس ، أو يعتمد عليهم في الشفاعة والمغفرة : « اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء » .

ثم سلكت سبيل الإنذار : فأنذرت بما أصاب الأمم السابقة حينما كذبت رسلها ، وعنت عن أمر ربها : « وكم من قرية أهلكناها

(*) انظر أول الأعراف الى نهاية الآية ٣٠ .

فجاءها بأسنا بيانا أو هم قائلون « . وخوفت بما أعد للمكذبين يوم ان يسألوا عما انزل اليهم ، ويوم أن يسأل عنهم المرسلون ، يوم الوزن الحق ، يوم يثقل الميزان أو يخف : « فلنسالن الذين ارسل اليهم ولنسالن المرسلين » ، « والوزن يومئذ الحق » ثم سلكت مسبيل التذكير بالنعم ، فلفتت الأنظار الى نعمة تمكين الناس في الأرض ، واتخاذهم اياها وطننا مزودا بضروب المنافع الشتى : يستقلون فيه بالحكم ، والانتفاع بموارده الظاهرة الباطنة لا يشاركون فيه أحد ، ولا يخرجهم منها انسان « ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معاش » .

ولفتت الأنظار الى نعمة خلقهم من أب واحد ، يجمعهم به رحم واحد ، وبه كانوا خلفاء في الأرض وعمارة الكون ، وفضلهم بذلك على كثير من خلقه . وهنا ذكرت السورة خلق آدم وقصته مع الملائكة ، من أمرهم بالسجود له ، اظهارا لفضله ، وتنويها بما يكون له من شأن ، بعد أن قالوا : « اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » .

تحذير من ابليس وجنوده

ثم ذكرت موقف ابليس من آدم وكيف ابى واستكبر ، وتعالى وتعاضم وقال : « أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » . ومن هنا ظهر للانسان عدوه المبين ، الذى ابتلاه الله به في هذه الحياة ، والذى يجب عليه — ليسلم من شره ويسعد ، ويحصل على رضا مولاه ، ويحقق حكمة الله في خلقه — أن يتخذ عدوا ، ينحسب نواياه ، ويعترف وسوسته ويكافحه بكل ما اوتى من قوة : يعرف انه قد نصب له الشباك وتعد له بالمرصاد ، ورسم خطئه في اغوائه والكيد له : « لاقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » .

بصرنا الله بهذه العداوة ، وحذرنا منها « اخرج منها مذموما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم اجمعين » . ثم يذكرنا بما كان من أثر عداوته لآدم أبى البشر : كان آدم وزوجه في رغد من العيش فابتلاههما الله بتكليف خاص ، فوسوس لهما الشيطان ليظهر ضعفهما ، فينحرفا عن التكليف ، فيقعن في شر المخالفة ،

فيكون لهما من الله جزاء المخالفين « فوسوس لهما الشيطان » .
« وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين فغلاهما بغرور » ، ووقعا في
المخالفة ، ثم تنبها الى كيد الشيطان ، وقالوا : « ربنا ظلمنا انفسنا
وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » .

وهكذا يجب ان يربط اولاد آدم نسبهم بآدم ، فيعزفوا — كما
عرف — كيد الشيطان ، ويطهروا انفسهم — كما طهر — من
وسوسته واغوائه ، فقد خلقهم الله في الارض ، وابتلاهم
بالشهوات ، وتعارض الرغبات ، وقام الشيطان بينهم ، يضل ،
ويكيد ، ويفرق ، ويفرى ، ونظم حياته على قوى الانفساد ،
فليحذروه ، وليتقوا شره ، وليعتصموا بدعوة الله الواقية ، لعلهم
يرحمون « اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض مستقر ومتاع
الى حين . قال فيها تحيون وفيها تموتون ، ومنها تخرجون » ..

وتخلص الآيات بعد ذلك الى نداءات أربعة تتجه بها الى الناس
بوصف النبوة لادم تذكرهم بنعم الله عليهم ، وتحذرهم فتنة
الشيطان ، وترسم لهم طريق الخير والفلاح في الدنيا والآخرة .

الربع الثانى :

الانسان بين الخير والشر

(*) قصص الله علينا نبأ آدم مع ابليس ، وكان مغزاه ان الانسان
له جانب خير يتلقى به امر ربه ويمتثله وينفذه ، فيصل الى سعادته
والى رضاه ، وله جانب شر ، به يستجيب لوسوسة الشيطان
واغوائه ، فيبعد بذلك عن سعادته ، ويصيبه غضب الله . واولاد
آدم من آدم ، تكوينهم من تكوينه واستعدادهم من استعداداته فلم
كأبيهم جانب خير يقودهم الى اتباع أوامر الله ، وجانب شر يوقعهم
في المخالفة والعصيان ، وابليس الذى نشأ على عداوتهم يغريهم
ويوسوس لهم كما أغرى أباهم ووسوس له ، ويحاول أن يكشف
لهم من عورات وسوءات ، كما كشف لأبيهم من عورات وسوءات .

(*) الآيات من ١٢٧ الى نهاية الآية ١٤٠ من سورة الانعام .

لهذا وجه الله الى ابناء آدم ، بعد أن بين لهم عنذاًوة ابله
لابيهم ، أربعة نداءات متتالية بوصف البتوة لآدم « يا بني آدم
يرشدهم فيها الى نعمته عليهم ويحذرهم بها من عدوهم ، ويرشدهم
الى أن هدايته لهم والتمسك بها هى وحدها سبيل عصمتهم ،
الوقوع فى كيدده ، ويذكرهم بأن الحرمان من النعيم ، الذى أصا
والديهم ، إنما كان بنسيانهما نعمة الله ، وباستجابتهما للشيطان
واغفالهما هداية الله .

امتن عليهم بأن هيا لهم سبيل الحصول على الملابس الذى
يسترون عورتهم ويريشون به أنفسهم فى مناسبات التجمل ، وله
أنظارهم الى أن تقوى الله فى الانتفاع بنعمة اللباس على الذى
رسم الله هو أساس الرضا ، وأساس الشكر « يا بني آدم ،
أنزلنا عليكم لباساً يوارى سواتكم وريشاً ، ولباس التقوى ذلك
خير » .

وفى تحذيرهم من فتنة الشيطان التى تمتن بها والديهم من قبل
ووقعاً بها فى المخالفة والعصيان : « يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان
كما أخرج أبويكم من الجنة » . وفى سبيل هذا يرشدهم الى أن عد
الايمان بالله والأعراض عن هديه هو الطريق الوحيد الذى به يتسلط
الشيطان عليهم ، وينفذ منه الى قلوبهم : « أنا جعلنا الشياطين
أولياء للذين لا يؤمنون » ، فيأخذون بهم الى طريق الشر ، ويخيّلون
لهم أن ما يفعلون من شر وفاحشة إنما هو باذن الله وأمره « وأذ
فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها » . ثم يجى
النداء الثالث ، فيكشف عن المعنى الانسانى فى اللباس ، وأنه مر
الزينة التى تحفظ على الانسان مكانته ، ويأمرهم باتخاذها فى المساجد
وما يسألها من المجتمعات ، ويرشدهم الى الاعتدال فيها ويضم اليه
الاكل والشرب ، ويقول : « ولا تسرفوا انه لا يحب المرفين » .

وكما يحذر الاسراف ، يحذر الحرمان ، وينكر على الاشحاء أو
المتقطعين حرمان أنفسهم من الزينة والطيبات من الرزق ، ويرشدهم
الى أن الجدير بالتحريم وبطهير النفس منه « الفواحش » التى
تأبها الإنسانية ، و « البغى » فى الأرض . و « الشرك » الذى
لا تقوم له حجة ، ولا يوحى بفضيلة ، والقول على الله بغير علم ،
وهو اصل الضلال ، والقضاء على شرائع الله وأحكامه . وترشدهم

الى أن لكل أمة أجلا ، تحاسب بعده على ما اقترفت من المظالم والمآثم ، وينزل بها الجزاء الذى تستحق ، وانها لا تحظى بالنعيم بعد هذا الأجل الا اذا آمنت بالله وهداه ، واتقت حرمانه ، وأصلحت ما أفسدت أو أفسد الناس : « يا بنى آدم اما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى ، فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

حرمان أبدي

ثم تصور لنا الآيات بعد مشهدا من المشاهد الواقعية يوم الجزاء للمكذبين حتى يتضح الحق ، ويشهدون على انفسهم بالكفر والتكذيب ، وان أربابهم — الذين كانوا يدعون من دون الله ، وشفعاءهم الذين كانوا يعتمدون عليهم فى النجاة من عذاب الله — قد ضلوا عنهم وتبرءوا منهم ، وفى هذا المشهد يتخاصم التابعون والمتبوعون ، ويلقى كل منهم بالتبعة على صاحبه ، ويسجل الله على الجميع تابعين ومتبوعين ضالين ومضلين الحرمان الأبدى ، ويوصد فى وجوههم أبواب الرحمة ، ويصف قلوبهم فى طبقات الجحيم المستعرة : « كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى اذا أداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار ، قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون » .

« لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط » .

« لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين » .

نعيم دائم

وبجانب مشهد الظالمين المكذبين ، ترسم الآيات مشهد المصدقين المؤمنين صفاء للنفوس من الغل والحقد ، وحدا على هداية الله ، وشكرا على نعمته : « ونزعنا ما فى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار » ، « وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » ، « لقد جاءت رسل ربنا بالحق ، ونودوا أن تلکم الجنة أورثتوها بما كنتم تعملون » ..

الربع الثالث :

محادثة بين فرق ثلاث

(*) يتحدث هذا الربع عن مشهد آخر ، تبدو فيه ألوان جديدة من صور التحية والتكريم للمؤمنين ، ومن صور التبكيت والحسرة للمكذبين ، وتجرى في هذا المشهد محادثة بين فرق ثلاث : فرقة المؤمنين أصحاب الجنة ، أهل الهدى والإيمان . وفرقة الكافرين ، أصحاب النار ، أهل الضلال والبهتان . وفرقة ثالثة لم يتحدث عنها القرآن إلا في هذه السورة ، وفي هذا الربع وباسمها سميت السورة ، وهي الفرقة التي سميت بأصحاب الأعراف « ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار » . « وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم » . « ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم » . « ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة » .

مشهد آخرى ، سيشهده العالم يوم البعث والجزاء دون تصوير ولا تخيل ، تبين تلك الآيات ما سيكون فيه من شمانية أهل الحق ، أصحاب الجنة ، بالمبطلين أصحاب النار « أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ » فلا يستطيعون إلا أن يقولوا : « نعم » فينطلق صوت علوي ، يسجل عليهم اللعنة والطرده والحرمان ، ومشييرا إلى أن ظلمهم للحق ولأنفسهم هو الذي حملهم على الصد عن سبيل الله وعلى السلوك المنحرف ، وعلى الكفر بما يرون الآن . وتبين أن بين الجنة والنار حجابا ، وأن على الأعراف رجالا ، يعرفون كلا من أهل الجنة والنار بسيماهم ، فينادون أهل الجنة بجميل التحية والتكريم : « أن سلام عليكم » وينادون الآخرين بما يضاعف حسرتهم ، ويبين لهم ما كانوا فيه من غرور : « ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون . أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة » ؟ ثم يلتفتون إلى أهل الإيمان ويقولون : « أدخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون » .

ويستقر أهل الكفر والضلال في الجحيم ، وتشوى النار وجوههم ، وتجفف أكنادهم ، فيفزعون إلى نداء أهل الجنة : « أن أفيضوا

عليها من الماء أو مما رزقكم الله » فيقولون لهم : « ان الله حرهما على الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرثهم الحياة الدنيا » . وهنا يقطع الله اعذارهم بأنهم كانوا في حل يوم أن جنّاهم بكتاب فضلناه على علم ، فماذا يقولون اليوم وقد تركوه من قبل ؟ .. « قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ، أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل ، قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » .

تلك شماتة المؤمنين بالكافرين ، وتحسر الكافرين على حرمانهم وسوء مصيرهم وبشرى أصحاب الاعراف وتحيتهم للمؤمنين ، وتبكيتهم للمنكرين الضالين ..

الحجاب والاعراف

وقد تكلم العلماء كثيرا في الحجاب الذي بين الجنة والنار ، كما تكلموا في معنى الاعراف وفي رجاله . والذي يجب علينا أن نؤمن به أن هناك حجابا بين الجنة والنار ، وقد يكون ماديا ، وقد يكون معنويا ، والذي يعلم حقيقته هو الله وحده . والقصد أن هناك ما يمنع وصول أهل الجنة الى النار ، أو وصول حرارة النار اليهم ، ويمنع وصول أهل النار الى الجنة ، أو وصول نعيمها اليهم . وأن هذا الحجاب لا يمنع من وصول الأصوات عن طريق المناداة .. ولعل ما نشاهده ، وما نحن فيه الآن من سماع الأصوات دون رؤية ومشاهدة ، أو الرؤية دون اتصال أو قرب ، أوضح شاهد على أن ما تصوره الايات حقيقة تقع وتأخذ حظها من الوجود ، وليست تخيلا ولا تمثيلا .

أما الاعراف ، فإظهار ما نراه في معناها ، الإمكان العالية الممتازة . يكون عليها رجال لهم من المنزلة الرفيعة عند الله ما جعلوا به مشرفين على هؤلاء وهؤلاء ، وهم عدول الأمم ، والشهداء على الناس ، وقد جاء التصريح بهم في مثل قوله تعالى : « فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » . « وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء ، وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون » .

عظاات

وبعد هذا تعود الآيات فتلفت الأنظار الى بعض الأدلة الكونية وتوجه النفوس الى دعوة الله تضرعا وخيفة ، وتحذر الانسداد في الأرض ، وتذكر مثلا للنفوس الطيبة التي تنفعل بهذه الأدلة فتؤمن وتصديق وترد الأمر كله الى مصدره ، خالق السموات والأرض ، والذي له الخلق والأمر . ومثلا آخر — يغالبه — للقلوب الملتوية التي تصرفها الشهوة عن الحق ، ويتحكم فيها الكبر ، فيمنعها من قبوله : « والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لا يخرج الا نكدا » . ثم تعود الآيات فتذكر تفصيلا لما أجملته السورة في أولها من أحوال الأمم المكذبة ، فتذكر جملة من الأمم التي كذبت رسلها وعنت عن أمر ربها ، وتبدأ بالرسول الأول الأب الثاني للبشر « نوح عليه السلام » ، فتبين أن دعوته كانت هي دعوة محمد عليه الصلاة والسلام : « أعبدوا الله ما لكم من اله غيره » ، وأن الذين ناصبوه العدااء وأخذ يسالمهم ويناصحهم ، هم المستكبرون من قومه . كما كان شأن المكذبين لمحمد عليه السلام . وأن نوحا لما صبر وصابر واستمر قومه على العناد والمكابرة كانت العقوبة للجميع : « فأنجيناه والذين معه في الفلك ، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوما عمن » . وهكذا سنلتنا مع الآخرين المكذبين .

سورة يونس

الربع الثالث :

(*) عنيت سورة يونس بما عنيت به السور المكية ، من تقرير التوحيد ، والرسالة والبعث ، ودفعت جملة من الشبه التي كان القوم يثيرونها حول رسالة الرسول ، وحول القرآن . ووصفت في كل ذلك ما شاعت أن تصف ، وفي هذا السياق ضربت للقوم مثل الحياة الدنيا التي خدعتهم زخارفها ، وحالت بينهم وبين استجابة الدعوة ، وهي دعوة الله التي يدعو بها إلى دار السلام ، والأمن من الشقاء والحيرة والارتباك ، ثم تصف حالة المحسنين الذين استمعوا للدعوة وما يحصلون عليه من الكرامة الخالدة ، والمكانة الرفيعة التي لا يلحقهم فيها نكد ولا ذلة : « أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » وتصف بازائها حالة المسيئين الذين كسبوا السيئات ، وما يصيبهم في دار الخزي من المذلة والمهانة : « أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

ثم تصف مشهدا من المواقف التي يصير إليها المكذبون يوم الحشر الذي ينكرونه ويستهزمون بذكراه ، ذلكم المشهد الذي يفرق فيه بينهم وبين شركائهم فتذهب آمالهم فيهم ، وتقطع ما بينهم من صلات ، ويتبرأ منهم الشركاء : « ما كنتم إيانا تعبدون » ، « ان كنا عن عبادتكم لغافلين » ، وفي هذا الموقف ينكشف الغطاء ، وتزول الأهواء ، وترى كل نفس ما قدمت من عمل ، ليس لها شفيع من دونه : « وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون » .

تحكيم الفطرة

ثم تنتقل الآيات إلى تحكيم الفطرة البشرية فيما تشهد به من توحيد الربوبية في الخلق والتدبير والرزق ، والاحياء والابانة ، وتسجل عليهم الجواب المتين الذي لا تعرف الفطرة سواه ، توحيد الالهية القاضي بعبادة الله وحده « فذلکم الله ربکم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال » .

(*) الآيات من ٢٥ إلى آخر الآية ٥٢ من سورة يونس *

ثم تنتقل بهم الى تحكيم الفطرة أيضا فيها وراء الخلق المادى من انواع الهداية المودعة فى نفوس البشرية وهى هداية العقل ، وهداية الوجدان : « هل من شركائكم من يهذى الى الحق ، قل الله يهذى للحق ، فمن يهذى الى الحق أحق أن يتبع ، أمن لا يهذى إلا أن يهذى » .

حول القرآن

ثم تنتقل الآيات بعد الحجاج العقلى والوجدانى الى موقف القوم بالنسبة للقرآن ، وقد كانوا ينكرون أنه من عند الله ، فبينت لهم أولا أن القرآن بطبيعة ما اشتمل عليه ، من تقرير الحقائق ، وإقامة الأدلة الكونية وشرح النفسيات الانسانية ، والسنن الاجتماعية ، والمغيبات الماضية والمستقبلية ، والأحكام التى ترشد الى السعادة ، يأبى بكل ذلك أن يكون من عند محمد ، أو غيره ممن لا سبيل الى معرفتهم بما احتوى عليه القرآن ، فهو حق من عند الله لا ريب فيه ، وهو تصديق لما بين يديه من كتب الاولين : « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله » .

ثم أخذت بهم الآيات ثانيا ، على افتراض انه افتراء من عند محمد ، الى التحدى ، ودمعهم الى الاتيان بمثله ، أو بسورة مثله ، فهم ومحمد فى البيئة واللغة سواء : عربى وعرب ، وبلغاء وبلغاء . ثم تكشف لهم عن حقيقة أمرهم ، وهى أنهم قوم مجترئون على ما لم يحيطوا بعلمه ، ولم تنفذ عقولهم الى أسرار وحكمه ، وسيتضح لهم عاقبة ظلمهم فى أنفسهم ، كما اتضحت لآخوانهم المكذبين من قبل : « فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » . ثم ترشد الآيات الى أن جهلهم بحقيقة ما اشتمل عليه الكتاب ، أو عدم إيمانهم به ، لم يكن ناشئا من خفاء الكتاب أو اضطرابه . وإنما هو ناشئ عن صلفهم وتكبرهم عن النظر فى الحق ، وأنه لا ذنب لاحد سوى أنفسهم فى تكذيبهم لتلك الحقيقة الواضحة : « أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون » ، « أفأنت تهذى العمى ولو كانوا لا يبصرون » . فما عليك أيها الرسول سوى أن تدعوهم بحجتك وأن تنذرهم يوم الحشر ، يوم ينكشف لهم الغطاء ، وينزل بهم العذاب ، وقد تخلف عنهم كل ما أغراهم من زينة الدنيا وشهواتها ولم ينتفعوا بشيء منها ، أو كأنهم لم يلبثوا فيها الا ساعة من النهار ، وهنا تسجل الآيات عليهم الخسران الأبدى بما فرطوا فى جنب الله :

« قد خسر الذين كذبوا بقاء الله وما كانوا مهتدين » ، « ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد ، هل تجزون الا بما كنتم تكسبون » .

الربع الرابع :

انذار وامهال

(*) من سنة الله مع الكذابين أن ينذرهم ، ثم لا يأخذهم من قريب ، بل يمهلهم فترة يستطيعون فيها مراجعة أنفسهم ، فإذا ما انقادوا وآمنوا ضمهم اليه ، وغفر لهم ما أسلفوا من عناد . ومن الناس من يطغيهام الامهال وينسيهم تلك السنة ، فيتخيلون أنهم في الإنكار على حق ، ويندفعون الى السخرية والاستهزاء بما به ينذرون : « متى هذا الوعد ان كنتم صادقين » أحق ما تقول ؟ ! . . وهكذا يأخذ بهم الصلف الى استعجال العذاب ، أو السخرية به ! . .

إمام هذا الطغيان يأمر الله نبيه أن يقرر لهم أن العذاب حقيقة واقعة ، وأنه نازل بهم لا محالة ، وأنهم غير قادرين على التخلص منه : « وما أنتم بمعجزين » . وتأكيدا لذلك في نفوسهم تصور الآيات لهم ما تعالج به صدورهم حينما يطوقهم العذاب من محاولة الاقتداء ، وشدة الندامة على مواقفهم السالفة التي أوقعتهم فيها هم فيه . ثم توظف ضمايرهم نحو ما استقر في الفطرة البشرية من أن صاحب هذا الوعيد ، وصاحب هذه الدعوة ، هو الله الذي له ملك السموات والأرض ، والذي له الأحياء والاماتة ، والذي اليه المرجع والمآب : « هو يحيى ويميت واليه ترجعون » . ثم تأخذ الآيات في بيان فضل الدعوة على الناس ، وأنها موعظة زاجرة لهم عن القبائح ، وشفاء مطهر لقلوبهم من الأوهام والخرافات ، وأرشاد موصل للحق والنافع ، ورحمة تقى الإنسان العذاب والخسران . وهو استدلال على صحة الرسالة بنفس تعاليمها ، ثم تؤكد لهم أن هذه المزاي خير ما يجمعون من زخارف الدنيا الفانية التي ليس وراءها الا الخسران المبين .

(*) مقدمة الآيات من ٥٣ الى آخر الآية ٧٠ من سورة يونس .

ثم تبكتهم في أثر من آثار كفرهم ، وهو اغتصاب حق الله في التحليل والتحرير ، وتسجل عليهم الافتراء به على الله : « قل آذن لكم أم على الله تفتنون . وما ظن الذين يفتنون على الكذب يوم القيامة » أيظنون أن الله يجلهم ولا يجازيهم ؟ . « ان الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون » .

ثم تقرر الآيات احاطة الله بكل ما يكون من شأن الانسان ، وبكل ما أودع في كونه الذي خلقه « وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا في كتاب مبين » . وانه بهذا العلم المحيط يقرر الجزاء العادل ، فالمكذب له من جزاء التكذيب ما توعد به المكذبين ، والمؤمن له من جزاء الايمان ما وعد به المؤمنين : « الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون » ، لهم في الدنيا ما يرضى وجوههم ، ويركز سلطانهم من عزة وقوة وجاء ، ولهم في الحياة الآخرة ما يرضى وجوههم من علو الدرجات وزيادة الفضل والعطاء .

خرافة الشركاء

واذا كان هذا شأن الله مع المكذبين والمؤمنين ، وكان لا تبدل لكلماته ، فليطمئن دعاة الخير ولا يكن في صدورهم حرج مما يذيع المكذبون وليثقوا بنصر الله الغالب على أمره ، الذي له ملك السموات والأرض ومن فيهن ، وليعلموا أن ما يعبد هؤلاء المكذبون من دون الله ، ويسمونهم شركاء ، ليسوا في واقع أمرهم شركاء ، وانما هم ضعفة عجزة ، لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً ، « والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون » . وانما خيل لهم الهوى والشيطان أنهم شركاء ، فضلوا « وان هم الا يخرصون » ان الله الذي جعلوا له هؤلاء الشركاء من دونه هو الذي جعل لهم الليل ليسكنوا فيه ، والنهار ليبتهوا من فضله . وقد خرجوا بفساد تصورهم عن مقتضى الفطر ، ومقتضى الآيات ، وراحوا يكفرون بالله الذي له ملك السموات وما في الأرض ، ويقولون في شأنه ، ما ليس لهم به علم : « قل ان الذين يفتنون على الله الكذب

لا يفلحون ، متاع في الدنيا ، ثم إلنا مرجعهم ، ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون » .

الربع الخامس :

(*) تضمنت سورة يونس كثيرا من أنواع الحجج العقلية ، ودفعت كثيرا من الشبه التي كان يثيرها المعاندون حول التوحيد والبعث والرسالة وكانت تذكر في الأثناء بما أصاب الأمم السابقة حينما وقفت من رسلها موقف المكذبين لمحمد عليه السلام : « ولقد أهلكتنا القرون من قبلكم لما ظلموا » ، « كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » ، « ولكل أمة رسول ، فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون » .

تسليية وعبرة

ثم جاءت هذه الآيات : « واتل عليهم نبا نوح » تفصل من هذه النذر الإجمالية قصتين ، لهما كثير من الشبه بقصة محمد مع قومه : قصة نوح عليه السلام ، وقصة موسى وهارون . وقصرت الحديث في قصة نوح على ما دعت إليه حالة الرسول مع قومه وقت نزول هذه السورة ، حينما فقد المدافع عنه فيما بينهم ، وهو عنه أبو طالب ، وفقد النصير في البيت ، بموت زوجه خديجة ، واشتد القوم في أيدائه والكيد له ، فأخذت الآيات في تسليته صلى الله عليه وسلم بموقف نوح من قومه ، وثباته على دعوته ، معتبدا في ذلك على الله وحده ، وأرشدته إلى أن طول الأمد على نوح ، وشدة أعراض القوم عنه ، لم يضعف من قوته ، بل تحداهم ، وطلب إليهم أن يجمعوا له كل ما يستطيعون جمعه من قوى الكيد والشر ، وأن يتحروا في أمرهم ، ويزيلوا عنه كل شبهة تعترضهم في سبيل الإيقاع به والقضاء عليه ، ثم يتجهوا له بكل ما هيئوا ورتبوا ، دون أمهال أو تردد ، وسوف يرون أنه لا يرفع لهم رأسا ، ولا يعبا لهم بجمع ، وكيف لا يهتز بجمعهم وهو لم يطلب بدعوته إياهم جاها ولا مالا ، وإنما يطلب بدعوته تنفيذ أمر ربه ، الذي وكل أمره إليه ،

(*) الآيات من ٧١ إلى نهاية الآية ٨٩ من سورة يونس .

واعتمد في السراء والضراء عليه : « يا قوم أن كان كبر عليكم مقامى
وتذكى بآيات الله فعلى الله توكلت » .

فهذا يا محمد ، موقف أخيك نوح ، تمسك به وإن طال عليك
الأمَد ، واشتدت شكية الأعداء ، وثق بأن عاقبتك عاقبته ، وعاقبة
المكذبين لك هي عاقبة المكذبين له ، وتلك سنتنا ولن تجد لسنتنا
تبديلا ، فليتحصن أرباب الدعوات الصالحة بإيمانهم وتوكلهم على
الله ، وسينظر الله اليهم ، وينزل بأعدائهم ما جرت سنته على
أنزاله بأعداء الحق في كل زمان ومكان . وهكذا فعل بقوم نوح ،
وفعل بنوح ، « فكذبوه فنجيناها ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف
وأغرقتنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين » .

أما قصة موسى وأخيه ، فقد تحدثت الآيات فيها عن مراحل
الدعوة من مبدئها الى منتهاها : تحدثت عن العوامل التي استكبر
بها فرعون وملؤه من قبول الدعوة ، وردتها الى أمرين : التمسك
بالموروثات الفاسدة « أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا » .
واعتقاد أن دعوته تسلبهم كبرياء الملك والعظمة ، وتجعلها لموسى
وأخيه « وتكون لكما الكبرياء في الأرض » وأخذوا بهذا ينفرون الناس
من الدعوة ، ويقولون : « أن هذا لسحر مبين » .

الباطل هزيل

ثم تحدثت عما جرت به سنة المكذبين من أساليب المقاومة الهزيلة
التي توقع في روع العامة أن المعارضين على حق في المعارضة
والتكذيب ، ولكن الباطل لا صبر له على البقاء أمام الحق ، وسرعان
ما تتزلزل قوائمه ، ويقع صريعا في ميدان التحدى « ويحق الله الحق
بكلماته ولو كره المجرمون » . .

وقد كان من المنتظر بعد هذا أن يقبل الناس على الإيمان ،
ولكن الجبروت يتخذ صاحبه سلاحا في يده ، يرد به الناس عن
تلبية الحق ، وبهذا يحجم كثير عن الإيمان ، ولا يقوم عليه إلا أرباب
النفوس القوية ، التي تبعد قوة إيمانهم غشاوة الخوف عن قلوبهم ،
« على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ، ونجنا برحمتك
من القوم الكافرين » .

ثم يرشد الله موسى وأخاه الى وسيلة تشد من أزرهم ، وتوقع الرعب في قلوب أعدائهم ، وهى أن يتقاربوا ويجعلوا بيوتهم متقابلة ، سبيلا للتكتل ، وأن يتجهوا الى الله بالدعاء وإقامة الصلاة ، فتمسوا أرواحهم ويشرق عليها نور الحق .

ثم يتجه موسى الى ربه : « ربنا انك آتيت فرعون وملاه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم ، واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم » .

ينطلق لسان موسى بدعوة الاخلاص والغيرة على الحق ، فتخترق حجب البساء ، ويسمع موسى من ربه : « قد أجيبك دعوتك ، فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون » وهكذا تصل القلوب المؤمنة الى نصر الله وتأييده .

الربع السادس :

النظر في العواقب

(*) لو تمثل للسارق وقت سرقة قطع يده أو للزاني وقت زناه حرمانه من الرامة . أو تمثل للذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا قتلهم أو نفيهم من الأرض ، لما أقدم سارق على سرقة ، ولا مجرم على هتك عرض ، ولا مفسد على الانفساد ، وتلك طبيعة بشرية تتجلى في المجرمين حينها يأخذهم العذاب ، وينزل بهم النكال .. وهكذا قص الله علينا المرحلة الأخيرة من شأن موسى وفرعون في تأييد الحق ونصرته ، وازهاق الباطل والقضاء على عناصره .

إيمان بعد فوات الاوان

يقتحم فرعون وجنوده البحر وراء موسى وقومه ، بقصد الفناء بهم « بغيا وعدوانا » حتى اذا ما أخذ البحر يطبق عليه ، تنبه وعيه ، وأخذ لسانه يضطرب بكلمة التوحيد « آمنت انه لا اله الا

(*) الايات من ٩٠ الى آخر سورة يونس ■

الذى آمنت به بنو اسرائيل . ولكن هيهات بعد أن كاد للحق ، وكان في سعة من الأمر ، والرسول يدعو ، وآيات الله تتلى عليه وهو لاه بسلطانه ، مغتر بقوته . هيهات وقد نزل القضاء أن يقبل منه ايمان ، أو يلحقه عفو وغفران « الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » . ولم يبق سوى أن يجعل منه آية ، يعتبر بها كل من يصل اليه نبؤه ، ويعرف سنة الله في المفسدين : « فاليوم ننجيك ببندك لتكون لمن خلفك آية » . وتلك هي الخاتمة السيئة التي زلزلت عرش الطفيان . وجدير بها أن تظل ذكراها ماثلة ، يتذكر بها كل جبار عاقبة الجبروت والطفيان « وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » .

بعد هذا تخدم السورة بجملتين من الآيات ، فيهما فصل الخطاب من جهة القرآن وحقيقته ، ومن جهة ثبات الرسول وقوة آياته بدعوته .

تأسيس الايمان

أما الجملة الأولى من الآيات ، فقد افترضت وقوع الشك في القرآن وأرشدت الى ما يقطع دابر هذا الشك ، ليكون الايمان عن حجة وبرهان لا خضوعا لقهر ، ولا استسلاما لتقليد : « فان كنت في شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك » وبذلك يخلق الانسان نفسه من طائفة الشاكيين المكذبين ، الذين اتضحت لهم حجج الحق ، وران العناد على قلوبهم ، فلم ينتفعوا بالآيات ، وحققت عليهم كلمة الله وكانوا من الخاسرين .

وقد ضربت الآيات قوم يونس مثلا ، فانهم لما آمنوا كشف الله عنهم عذاب الخزي ومتعهم بما قدر لهم من نعيم ، فها لا يسلك هؤلاء المكذبون سبيلهم ، فينجوا كما نجوا ، ويمتدحوا كما امتدحوا ؟ . ان التكذيب لم يكن مفروضا عليهم ، وان الايمان لا يكون عن قهر والجاه ، ولو أراد الله ذلك لآمن من في الأرض كلهم جميعا ، ولكن خلق الله الانسان وجعله مستعدا للايمان والكفر ، تصحيحا لقاعدة التكليف والجزاء . . . وتلك سنته التي ربط فيها بين الأسباب المقدورة ، والمسببات المطلوبة : « وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله ويحمل الرجز على الذين لا يعقلون » .

واذن الله ، سنته ونظامه في ايمان من يؤمن وكفر من يكفر ، عن اختيار وتقبل لا عن قهر والجاه : واذا كان الشأن مبنيا على ما يختار المرء لنفسه ، فسبيله أن ينظر ويفكر ، فمن أقبل بقلبه على المعرفة ، آمن وعرف ، ومن أعرض عن النظر والتدبير فماذا تنفعه الآيات والنذر ، ليس له في سفتنا سوى ما قصصنا من أخبار الذين خلوا من قبل « قل فانتظروا انى معكم من المنتظرين ، ثم تنجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين » .

ثبات الرسول

ثم أخذت الجملة الثانية من الآيات ، تصور ثبات النبي على دعوته وتؤكد انفعال نفسه بها ، انفعالا يبطل ما يوجه اليه من مساومة أو محاولة ، وفي هذا السياق ، تقرر الآيات الأصول الأولى للدعوة فتذكر تطهير القلب من عبادة غير الله ، واخلاص العبادة له وحده وربط القلب به عن طريقته المستقيم الذي لا عوج فيه ولا انحراف . ثم توصل باب التوجه الى غيره بالعبادة ، وتحذر دعاء غيره أيا كان ، وترشد الى أن غيره أيا كان ، لا ينفع ولا يضر ، والعامل يجب أن يعرف الحقائق ، وأن يركن اليها ، فكما لا يعبد غير الله لا يدعو غير الله ، ولا يطلب من سواه ، فهو صاحب الأمر ، وصاحب التصريف ، ولم يجعل لأحد من عباده حق التصرف في خلقه : « وأن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله » .

هذا هو الدين الحق ، أوحاه رب الناس الى الناس ، واضح المعالم ، بين المسالك ، فمن اهتدى به فقد أنقذ نفسه ، وحصل سعادته ، ومن ضل واتبع الأهواء فقد دس نفسه وعرضها للخزي والنكال .

أما أنت يا محمد فسر في طريقك وثبت قلبك : « واتبع ما يوحى اليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين » .

سورة هود

الربيع الاول :

(*) هود عليه السلام ، هو أول رسول الى قوم عاد . وعاد أول أمة من نسل سام بن نوح ، وقد تحدث القرآن كثيرا عن هود فيمن تحدث عنهم من رسل الله الكرام ، وقد ذكر باسمه خمس مرات في هذه السورة التي سميت به ، وقالوا : انه أول من تكلم باللغة العربية .

وسورة هود من السور المكية ، شأنها كسائر المكى : تقرير أصول الدين ، وإقامة الأدلة عليها ، ورد الشبه التي كان يثيرها المعارضون حول الدعوة وصاحبها عليه السلام .

عناصر الدعوة الالهية

والمندبر ، للسورة يرى أنها . أولا : قررت عناصر الدعوة الالهية — وهى : التوحيد ، والرسالة ، والبعث — عن طريق الحجج العقلية ، مع الموازنة بين النفوس المستعدة للإيمان ، والنفوس النافرة منه . وقد عرضت ذلك فى أربع وعشرين آية يختم بها الربيع الأول منها : « مثل الفريقين كالأعمى والأصم .. »

ثم أخذت تتحدث عن جملة من الرسل السابقين ، بيانا لوحدة الدعوة الالهية ، وتسلية للرسول عليه السلام ، وإنذارا للكافرين ، واستغرق ذلك الى نهاية الآية التاسعة والتسعين : « وأتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة بنس الرغد المرفود » ثم ذكرت فى اثنتى عشرة آية بالوعد والوعيد ، وبسنة الله فى أخذ الظالمين . وختمت بتوجيه الخطاب الى النبى ومن تاب معه فى مثلها اثنتى عشرة آية مرشدة الى منهاج السعادة والفلاح . وتبتدىء من قوله تعالى : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا » الى نهاية

(*) الآيات من أول السورة الى نهاية الآية ٢٣ من سورة هود .

السورة : والله غيب السموات والأرض واليه يرجع الأمر كله
فابعده وتوكل عليه وما ريك بغافل عما تعملون .

كتاب محكم

هذا هو موجز ما اشتملت عليه سورة هود ، وقد بدأت غوصت
الكتاب بالاحكام ، فلا يتطرق اليه خلل . وبالتفصيل فليس فيه
خفاء وبأنه تنزيل الحكيم الذي لا يضل ، الخبر الذي لا تخفى عليه
مصلحة . تاخذ في تقرير الوجدانية والبعث ، وان الله سبحانه هو
وحده المرجع في طلب المغفرة وقبول التوبة ، وان مهمة الرسول ،
هي الانذار والتبشير : « الا تعبدوا الا الله اننى لكم منه نذير وبشير ،
وان استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعا حسنا الى اجل
مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله . وان تولوا لمانى اخاف عليكم
عذاب يوم كبير . الى الله مرجعكم وهو على كل شىء قدير . »

وفي اثناء ذلك تشير الى ما يحصل عليه الانسان من سعادتي
الدنيا والاخرة اذا هو لبي الدعوة وآمن بها ، وما يصيبه من
خسران وشقاء اذا هو استمر على كفره واعراضه ، ثم تصور
لنا حالة المعرضين في محاولتهم انكار الحق ، وانطوائهم في ثيابهم
على صدورهم مع وضوح الأدلة في أنفسهم وفي الآفاق : « وما من
دابة في الأرض الا على الله رزقها . » وهو الذى خلق السموات
والأرض في ستة ايام . »

ثم ترشد الى ان اعراضهم عن الحق لم يكن لخفاؤه ، وانما هو
لاضطراب نفوسهم وترددها بين يأس الضراء وبطر النعماء ، ولو
انهم عصموا أنفسهم من ذلك وعرفوا الحق واستقر في قلوبهم، لكان
لهم من صبر الايمان وصالح الاعمال ما يطمئنهم على حسن العقابة :
« الا الذين صبروا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر
كبير . » ولكن القوم مع هذا البيان الواضح ما كانوا يتركون احراج
الرسول باقتراح ما لا يخل تحت قدرته من الآيات ، فأخذت الآيات
في تسليته ، وبيان ان في القرآن الغناء لمن أن يؤمن ، وليس على
الرسول الا أن يقوم بمهمته ، وهي التبليغ والانذار ، وان تكذيبهم آياه
لم يكن لطلب حجة هم في حاجة اليها . وانما هي الدنيا ، ملكت عليهم
قلوبهم ، وصرفتهم عن النظر في حجة الله التى أنزلها بعلمه، وسيرهم

ما ينزل بهم من جزاء : « أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » . ثم تزيده تثبيتاً على حقية الدعوة بأنها دعوة يؤمن بها من طهر قلبه واتجه إليها ، وإلى نفسه فاتخذ منها البرهان على صدقها ، ثم رجع إلى تاريخ البشرية وعرف أنها رسالة الله إلى خلقه : « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة أولئك يؤمنون به » . وما يكفر به إلا الذين حرموا من ادراك الوجدان وبرهان العقل ، وعميت عليهم أنباء الأولين : « فلا تك في مرية منه انه الحق من ربك » .

ثم تعود الآيات فتصف المكذبين بجملة من الأوصاف وترشد إلى سوء مصيرهم ، وتسجل مضاعفة عذابهم وحرمانهم من النصير المدافع . ثم ختم عليهم بقوله تعالى : « أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » . ومن شدة التنكيل بهم تضع أمام أعينهم عاقبة المؤمنين : « أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » . ثم تضرب المثل للفريقين بما يعرفون به مقدار التفاوت بينهم : « مثل الفريقين كالاعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا ، أفلا تذكرون » .

الربع الثاني :

(*) هذا هو الفصل الثاني من سورة هود ، ومن سنة القرآن أن يتبع تقرير الدعوة بما يدل على أنها بأصولها وأدلتها ونتائجها في الدنيا والآخرة ، هي دعوة الألوهية الوحيدة ، التي بعث الله بها جميع رسله من مبدأ الخليقة إلى مرحلتها الأخيرة ، مرحلة الاكمال والاتمام ، وهي مرحلة محيد عليه السلام . وإن محمدا لم يكن بدعا فيها ، كما أنه لم يكن بدعا في المقابلة بالكذب من قومه ، وإنما شأنه في الدعوة وفي اعراض قومه عنه ، شأن أخوانه السابقين مع أمهم ، وسيكون شأنه ، وشأن قومه في العاقبة شأنهم وشأن أقوامهم : « قهل ينظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ، قل فانتظروا انى معكم من المنتظرين ، ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين » .

الآيات من ٢٤ إلى نهاية الآية ٤٠ من سورة هود ١٥

وفي هذا السبيل ذكرت السورة نوحا وقومه وهودا وقومه ،
وشعيبا وقومه ، وموسى وفرعون . وفي كل قصة من هذه
القصص عبرة أو عبر ، جدير بدعاة الحق في كل زمان ومكان أن
يملاؤا بها قلوبهم ، غيظئئوا الى نصر الله وتأييده ، وجدير بالمكذبين
أن يتمثلوها حتى لا يصيبهم مثل ما أصاب أسلافهم من قبل .

قصة الاب الثاني للبشرية

وبدأت السورة بالأب الثاني للبشر ، وهو نوح عليه السلام ،
فذكرت انه دعا قومه الى توحيد الله ، وانه أنذرهم الشقاء الأبدى
إذا هم أعرضوا عن دعوته ، واستمروا على عبادة الاصنام من دون
الله : « انى أخاف عليكم عذاب يوم اليم » وذكرت ان القوم طعنوا
في رسالته ، فقالوا : انه بشر مثلهم ، والبشر لا يصلح في نظرهم أن
يكون رسولا ، وقالوا : انه لم يجب دعوته الا أراذل القوم يريدون
الطبقة الدنيا « الفقراء » ولو كانت حققة لسارع اليها أرباب المصالح
والثراء « الطبقة العليا » ، وانه لا ينبغي لهم أن يجعلوا انفسهم
وهم أصحاب المال والسلطان في مستوى هؤلاء الفقراء ، يجمعهم
واياهم دين واحد ، ويخضعون معهم لسلطان واحد ، وانهم لا يرون
لهم ، ولا لرسولهم من المزايا ما يهون عليهم أن ينزلوا بانفسهم
الى مشاركتهم في أتباعه والايان به ، ولعل هذا الموقف من قوم
نوح ، هو أول بعث لفكرة الطبقات ، التى تقلب بها المجتمع
البشرى — ولا يزال — عنى كتل من الجمر ، محرقة للفضائل ،
مضيعة للكفارات ، فمتى يفيق العالم وهو في آخر مراحل الرقى ،
ويخلص نفسه من هذه العلة المزمنة التى اندمغ اليها وهو في طور
الطفولة الذى لا رشد فيه ؟ .

ثم جاءت الآيات تفند هذه الطعون ، وتتلع هذه الفكرة من
أساسها وتقرر أولا أن صاحب الدعوة ، وقد تواخرت لديه أدلة
الايان بها ، وليس من شأنه أن يكرههم عليها اذا خفيت عنهم ،
وهو لا يطلب منهم مالا ولا عزة ولا ترتبط دعوته بالمال ولا بالسلطان ،
وانما يدعوهم اليها طلبا لخيرهم ، وعيلا على مصلحتهم ، فعلام
هذا الموقف الذى ان دل على شيء فانما يدل على التمرد والبعد
عن فهم الحقائق ؟ . . والا فكيف ينقمون منه ان أجاب الفقراء
دعوته ؟ وهى دعوة الله الذى لا يرن خلقه بميزان الغنى والفقر ،

ولا بميزان القوة والضعف وإنما يزنهم بمقياس الصفاء والاخلاص ، والإيمان بالحق الذي يدعو اليه . كيف ينتقمون منه هذا ويطلبون منه أن يطردهم : « وما أنا بطارد الذين آمنوا أنهم ملائكة ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون ، ويا قوم من ينصرني من الله أن طردتهم ؟ » .

إن النبوة ليست أكثر من اصطفاء الله لمن يقوم بتبليغ رسالته ، وليس من لوازمها ، بل ولا يصح أن يكون من لوازمها أن يكون الرسول ملكا ، أو أن يكون عنده خزائن الله ، أو أن يكون محيطا بغيب الله فهو بشر ، يقف عند حدود البشرية ، لا يتجاوزها إلا بمقدار ما يوحى اليه ، وهو بذاته لا يعلم إلا ما يعلمه البشر ، ولا يقدر إلا على ما يقدر عليه البشر ، وإن الله قد كلفه بتبليغ رسالته ، ولم يجعل الناس أمامه في التبليغ إلا كما جعلهم في الخلق ، مساوية لا طبقات ، ولا أسياد ، ولا أراذل « ولا أقول للذين تردى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا ، الله أعلم بما في أنفسهم ، انى إذا لمن الظالمين » .

سفاهة قوم نوح

وقف نوح مع قومه ألف سنة الا خمسين عاما ، يقيم الحجة ، ويدفع الشبهة حتى أخرسهم الحق ولم يجدوا منفذا للقول . فراحوا يستعجلون العذاب الذي توعدهم به ، شأن الموفل في العناد ، يلقي بنفسه في اليم ، أو في النار ، حتى لا يقال : غلب على أمره ، وخضع لغيره ، ولا يدري أنه يسجل على نفسه نهاية الخزي في الأعراض عن الحق تبعا للشهوة باطلة ، أو خيال فاسد : « يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين » ، فيقرر لهم نوح الحق الذي يؤمن به « انها يأتكم به الله ان شاء وما أنتم بمعجزين » .

وتأتى المرحلة الأخيرة فيعلم الله فيها نوحا انه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن ، فاطو صفحة جهادك معهم ، واتخذ وسيلة النجاة لك ولقومك : « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون » فيمثل نوح الامر ، ويصنع الفلك « وكلما مر عليه ملامن قومه سخروا منه » ، فيؤكد لهم ان عاقبتهم

فى موقف السخرية والعذاب ، هى عاقبتهم فى موقف السخرية بالرسالة ، سيصيبهم خذى العذاب ، كما أصابهم خذى الحجة والبرهان . وأن من العذاب ما يرفع صاحبه الى الهامات ، وهو عذاب الرسل والمجاهدين فى سبيل الحق يصيبهم على أيدى الطغاة الظالمين ، وهو عذاب مستعذب ، مشرف لصاحبه ، يعقبه نعيم مقيم ..

ومن العذاب ما ينزل بصاحبه الى أخط الدرجات ، ويكون مثلاً يشغى صدور المؤمنين ، ويزعزع كيان المبطلين ، وهو عذاب الاعراض عن الحق والكيد لأهله وهو عذاب الخرى الذى يعقبه عذاب دائم اليم « فسوف تعلمون من يأتية عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم » .

الربع الثالث :

نبوة الإيمان هى الحق

(*) صنع نوح السفينة ، وأتم عدته ، ونفذ ارشاد الله ، وحمل فيها مع أتباعه من كل صنف زوجين اثنين ، وفار إلتور ، وتفرج الماء حتى طغى ، وأخذت السفينة تجرى بهم فى موج كالجبال « ونادى نوح ابنه وكان فى معزل : يا بنى اركب معنا ، ولا تكن مع الكافرين » فأبى الولد ، وعزف عن دعوة أبيه ، واعتقد انه يعتصم بغير الله ، ودفعت نوح شفقة الأبوة الطبيعية ، فطلب من الله إنجاز وعده فى أهله معتقداً أن ابنه من أهله ، الذين وعد الله بنجاتهم مع نوح : « ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق واثت أحكم الحاكمين » فمرد الله عليه بأن البنوة الطبيعية لا مكانة لها عند الله ما لم تشد أزرها بنوة الحق ، والاعتصام بأمر الله « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وأخوانكم أولياء أن استحبوا الكفر على الإيمان » ، « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » ، وهذا فى رسالة محمد يؤكد ويفصل ما جاء فى رد الله على نوح : « يا نوح انه ليس من أهلك ، انه عمل غير صالح »

(*) الإيات من ٤١ الى نهلية الآية ٦٠ من سورة هود .

ويدرك نوح زلته ويلتمس من ربه المغفرة : « انى اعوذ بك من أسألك ما ليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين » فيغفر الله لنوح زلته ، ويتم عليه وعلى من معه نعمته : « وقيل بعدا للقوم الظالمين » .

الطوفان

وقع الطوفان ، وذهب بأعداء الله ، أعداء الحق ، وذلك عبرة القصص فى القرآن ، وقد صرف الناس عنها بحوث وضعت فى الكتب والتفاسير ، شغل الناس بها عن العبر والعظات ، وكان من ذلك الكلام الكثير فى عموم الطوفان وخصوصه ، وعموم رسالة نوح وخصوصها ، فمن قائل : بأن الطوفان لم يكن علما ، وأن التناسل البشرى لم يكن خاصا بذرية نوح ، ولم يكن نوح الأب الثانى للبشر ، وأن رسالته كانت خاصة بقومه بحكم السنة الالهية فى إرسال الرسل الى اقوامهم . ومن قائل بأنه لم يكن بسطح الأرض سوى قوم نوح الذين لم يؤمن منهم الا قليل ، وهم الذين كانوا معه فى السفينة ، وأن رسالته كانت عامة بحكم انحصار الناس فى قومه لا بحكم انه مرسل لهم ولغيرهم ، وأن نوحا هو الأب الثانى للبشر ، تناسلت البشرية من ذريته فقط بعد الطوفان ، وأن الطوفان كان عاما للمعمور من الأرض اذ ذاك .

هكذا اختلف الناس واكثروا من القول .

رأى الامام الأكبر

والذى نراه أن المسألة من المعارف البشرية التى تركها الوحي لبحث الانسان ، لا تفسيرا للقرآن ، وليس من مهمة القرآن أن يحدد الأوضاع ، ولا أن يعين الوقائع ، وإنما مهمته الارشاد الى ما تدل عليه القصة من جهات العظة وأنواع العبرة . وعلى كل فـ « نوح » أرسل لقومه فقط ، أما انه كان فى المعبرة غير قومه ولم يرسل اليهم ، أو انه لم يكن فيها سواهم ، فهذا شىء ليس له تأثير فى هدف القصة ، ولا يمس اختصاص محمد عليه الصلاة والسلام بعموم الرسالة لقومه ولغير قومه الموجودين على سطح

الأرض ، ومن سيوجد عليها الى يوم الدين : « قل ياأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا » .

هذا . . . وفي العظة المقصودة من هذا القصص ، وفي دلالاته على أن القرآن من عند الله ، يختم الله قصة نوح بقوله لنبيه على مسمع من القوم : « تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين » .

قصة هود

ثم تتبع الآيات قصة نوح ، بقصة هود عليه السلام ، فتذكر دعوته أيضا الى قومه ، وأنه أخذ بهم الى سبيل الخير والقوة عن طريق عبادة الله وحده ، واستغفارهم مما هم فيه من الطغيان : « استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين » . وتذكر معارضة قومه له وانكارهم عليه ، وان آلهتهم أنزلوا به الجنون والاضطراب ، فيتبرأ هود من آلهتهم ويتحداهم ، ويستنهض همتهم في أقصى ما يستطيعون من قوى الكيد ، وأنه سوف لا يعبا بهم ولا بجمعهم : « انى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها » . .

وتذكر بعد ذلك خاتمة امره مع قومه على حسب سنة الله في نصره اوليائه ، وخزى أعدائه :

« ولما جاء امرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ . وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا امر كل جبار عنيد . واتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة الا أن عادا كفروا ربهم الا بعدا لعاد قوم هود » .

سورة الكهف

تقديم :

(*) سورة الكهف هي السورة الثالثة من سور خمس في القرآن الكريم ، بدئت بـ « الحمد لله » قبلها سورتان هما الفاتحة ، والأنعام ، وبعدها سورتان هما سبأ ، وفاطر . وسورة الكهف تضع حداً عن طريق التربية الروحية لضلالات قديم الفه الناس في تقويم الحياة ، ذلك هو تقدير القيم الانسانية بحفظ المال والثراء والجاه ، وتبين أن ما على الأرض من زينة ونعم مادية انها كان طريقاً لاختبار الناس أيشكرون أم يكفرون ؟ . وليس هو كل ما يقصد من الحياة ، بل هناك ما هو أسمى منه وأرفع : « انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً » .

قصص وأمثلة للعظة والعبرة

وفي سبيل ذلك نقص ثلاث قصص لكل منها دلالتها الخاصة في تقدير الحق بذاته ، وارتباطه بطهر العقيدة ونقاء النفس لا بالمال ولا بالحياة : قصة أصحاب الكهف ، وهي قصة التضحية بالنفس في سبيل العقيدة : « انهم غثية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » . قصة موسى مع العبد الصالح ، وهي قصة التواضع الذي لا يعرف — في سبيل العلم . والتكمل بالمعرفة — التكبر ولا الغرور : « هل اتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً » ؟ . وقصة العدل واغاثة الضعيف ، وهي قصة ذي القرنين الذي أنصف بعدله وقضى بقوته على المفسدين .

وكما استخدمت السورة في سبيل هدفها هذه القصص الثلاث استخدمت فيه من جهة أخرى أمثلة ثلاثة ، بينت بها أن الحق لا يرتبط بكثرة المال ولا بعلو الانسان ، وهو مثل الغنى المكابر بماله

﴿ مقدمة عامة لسورة الكهف ﴾

والفقير المعتز بآيمانه : « واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين .. » ، ومثل الحياة الدنيا وما يلحقها من فناء : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء » ومثل إبليس وما أصابه من الطرد والحرمان جزاء تكبره واستعلائه : « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس . وهنا حذرت الآيات أبناء آدم أن يتخذوه وأعوانه أولياء من دون الله وبينت لهم أنه وذريته أعداء لهم من أول النشأة ، يدفعونهم إلى الشر ويكيدون لهم عن طريق الاغواء ، ويصرفونهم عن أرباب النفوس الزكية ويطلبون اليهم أن يطردوهم عن مجالسهم ، لما هم عليه من فقر وضعف .

ثم تبين أن هؤلاء الذين يحاولون اضلال الناس عن الحق ليس لهم في شأن الله ونظام خلقه من أمر ، فهو لم يحضرهم وقت أن خلق ونظم ، وهو لم يعتمد عليهم في فعل أو يشركهم في رأي ، فكيف يجعلون لأنفسهم سلطان التوجيه ؟ .. وكيف تروج عند الناس وسوستهم .. ؟ « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً » . فتخلوا عنهم كما سيتخلّى عنهم شركاؤهم ويسلمونهم إلى النار » ولم يجدوا عنها مصرفاً » . ثم تشير الآيات إلى أن أعراضهم عن الحق لم يكن ناشئاً عن حاجة الحق إلى دليل وإنما هو الطغيان الذي يمنع صاحبه من الإيمان ، ويجعله يجادل بالباطل ليحضر به الحق ويحول بينه وبين التفكير في العاقبة فلا يتذكر إلا إذا استمر به العذاب أو فاجأته سنة الأولين ، تلك سنة المنكرين من قبل ، وسيرها المنكرون من بعد .

ثم تذكر الآيات أنه لولا رحمة الله بعباده وأنه يمهّلهم رجاء التوبة لعجل لهم العذاب ، ولكنه جعل لهم موعداً لن يجدوا من دونه مصرفاً عن العذاب وتلك القرى أهلكناها لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً » .

وجوب التواضع في طلب العلم

ثم تذكر الآيات قصة التواضع في طلب العلم الماثلة فيما جرى بين موسى والعبد الصالح : فان موسى مع علو شأنه في المعارف

الالهية لم يمنعه علوه عن تحمل المشاق في سبيل العلم دون أنظر الى مكانة من يريد التعلم منه ، وفي هذا ما يخفف حدة الكفار على الفقراء ، ويرشد الى أن العلم أسمى من المال ، وأنه لا ينبغي أن يتخذ فقر العلماء مانعا من السعى اليهم ، وتركية النفس بعلهم ، فهذا موسى نبي الله وكليمه ، لا يكاد يعلم بالعبد الصالح وبها عنده من علم حتى يجمع أمره على الوصول اليه كيفما كان الطريق « لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا » .

والتقى موسى بالعبد الصالح وقدم له نفسه مستأذنا في أن يجعل نفسه تبعا له ليعلمه : « هل اتبعك على أن تعلمن مما علمت ورشدا » . فيطلب منه العبد الصالح التسليم فيما يرى والبعد عن الجدل ، فيطمئنه موسى على غاية الخضوع : « ستجدني أن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا » . . فيعده العبد الصالح بالبيان اذا هو التزم الشرط : « فان اتبعنتي فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا » .

وعلى هذا التعاقد ركبا السفينة ، وكان أول ما فوجيء به موسى أن العبد خرقها ، وكان لخرقها هول في نفس موسى أنساه الالتزام السابق ، فانكر عليه ، ثم عاد يعتذر بالنسيان .

وكان الحادث الثاني أن قتل العبد الصالح غلاما ، فعاد موسى الى الإنكار وعاد العبد الصالح الى اللوم ، وموسى الى الاعتذار ، وهدده صاحبه بقطع العلاقة أن عاد الى الثالثة ، وعاد الى الثالثة فانكر عليه اقامة الجدار المائل ، وهو لقوم لم يحسنوا اليهم ، وهنا نفذ العبد الصالح تهديده لموسى وقال : « هذا فراق بيني وبينك سائبك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا » .

الربع الأخير

سر الأحداث التي أنكرها موسى

وفي هذا الربع ينفي العبد الصالح لموسى بما التزم ، فيكشف له عن سر الأحداث التي فعلها وأنكرها عليه موسى ، وهي خرق

(*) الآيات من ٧٩ الى آخر سورة الكهف .

السفينة ، وقتل الغلام،والاحسان لقوم لا يعرفون قيمة الاحسان. وقد كان منشأ الانكار عند موسى انه لم يعرف سببا يبيح اتلاف مال الغير ولا قتل النفس ، ولا تحمل المشقة لقوم لا يطعمون المحتاج. ويدور البيان على أن وراء الظاهر واقعا يعلمه العبد الصالح ولا يعلمه موسى ، وهو الذى حمل العبد الصالح على فعل ما فعل ، وذلك الواقع هو أن ملكا ظالما كان يتتبع السفن الصالحة فى البحر يغتصبها من أهلها ، فرأى العبد الصالح أن يعيها فتسلم لأهلها الفقراء : « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر » . وأما الغلام ، فقد علم العبد الصالح أن بقاءه مفسد لأبويه ، فاحتفاظا بسعادتهما ، وابقاء على إيمانها قتل جرثومة شرهما : « فأردنا أن يبدلها ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما » .

وفى حادث الغلام يتجلى بوضوح معنى قوله تعالى : « فوجدنا عبدا من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعليناها من لدنا عبدا » . ومعنى قوله تعالى : « وما فعلته عن أمري » فالله واسع العطاء يهب ما يشاء من رحمته وعلمه لمن شاء من عباده .

ولا متمسك لمن يدعون علم الغيب بهذه القصة ، فان أخطأ طرفيها كان نبيا ، يوحى الله اليه ولا يقره على ضلال ولا بهتان . ومن أين لهم مثل موسى نبي يوحى اليه ، وتجرى حوادثهم على يديه .

وأما الجدار فليس الشأن فيه لأهل القرية ، وإنما هو لأيتام كان لهم تحته أموال ، فمحافظة عليها أقام العبد الصالح الجدار . وتلتقى أحداث العبد الصالح الى حد ما ، مع قاعدة ارتكاب « اخفى الضررين » التى تبيح للانسان أن يقدم على فعل فيه شر ما ، متى علم أن فيه خيرا أكثر من شره وقديما قيل : « شر قليل فى سبيل خير كثير خير كثير » .

ولقد عرف موسى من هذه الرحلة أن وراء الظاهر الذى يحيط به الانسان فى عاداته باطنا تشرق عليه فيه أنوار الحقائق ، وبذلك يأخذ نفسه بالصبر فى تجريد النفس عن التأثير بالعلائق المادية ، والمنغصات البشرية ، ويصفو لله فى الدعوة الى الله .

نبا ذى القرنين

ثم تقص الآيات نبا ذى القرنين وهو ملك مكن الله له بتقواه وعدله أن يبسط سلطانه على قرنى المعورة شرقا وغربا ، وكان من عدله الذى تقوم عليه الحياة وتسعد به الجماعة ذلكم المبدأ العظيم .

« أما من ظلم فسوف نعذبه ، ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا . وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا » .

ولا تصلح رعية لم يضرب فيها على أيدي الظالمين ، كما لا تصلح رعية لا يلقى المحسنون فيها جزاء احسانهم ، فبخس احسان المحسن لا يقل عن ضرر الجماعة عن محابة المسيء ، كلاهما ينزل بالجماعة الى الحضيض . فاذا كانت محابة الظالم تغري بالظلم فان بخس الاحسان يخرج الصدر ويميت قوة النشاط . وتلك هى العبرة الخالدة فى هذا الجانب من قصة ذى القرنين ..

اما الجانب الآخر من قصته : فهو ماثل من قوته واعتماده على الله فى اغاثة المستضعفين ونصرتهم وانقاذهم من افساد المستعمرين المغيرين عليهم وعلى بلادهم بدون حق .

يصل ذو القرنين الى قوم لا تساعداهم لفهمهم على حسن التفاهم معه ، ولكنه يفهم شكواهم والتجاءهم اليه : « قالوا ياذا القرنين ان ياجوج وماجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا » ؟ .. فتدفعه عاطفة الخير الى التلبية معتندا على ربه قال : « ما مكنى فيه ربي خير » . ويطلب منهم ان يتحملوا نصيبهم من المعونة باخلاص وقوة فلا يتواكلوا . ولا يلقوا بكل أمرهم عليه ، ويقسم ذو القرنين السد بين الجبلين ، فلا يجد المفسدون اليهم سبيلا : « فما استطاعوا ان يظهروه وما استطاعوا له نقبا » .

واجب الراعى والرعية

وهذا شأن الملوك المخلصين المحبين للشعوب ، ولا تقبل دعوى خدمة الشعوب الا اذا اقترنت بالصدق فى عمل حازم يقى الشعوب

ضرر المفسدين ، وواجب الأمة مع هؤلاء المخلصين أن يبذلوا في معونتهم ما استطاعوا بقوة وإخلاص . أما دعوى خدمة الشعوب مع الكيد لها وتآليب الأعداء عليها ، فهي دعوى يجب أخذ الحيطة منها وواجب الأمة حينئذ هو اعتمادها على نفسها وعلى قوتها النابعة من الإيمان وحب الوطن .

ثم تقرر الآيات أن الله بسننه يترك الناس في هذه الحياة يتدافعون ويتنافسون : « وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض » . ويستمر شأنهم كذلك إلى يوم الدين فتكشف لهم الحقائق بعد أن كانت أعينهم في غطاء ، وبذلك تحذر الكافرين وتعلن أوصاف الآخرين ، وتردها إلى الكفر بآيات الله والاستهزاء برسله . ثم تذكر جزاء المؤمنين الصالحين ، وتقرر سعة علم الله وسلطانه ، وعجائب كونه وأسرار ملكه ، ثم تأمر الرسول بتقرير بشريته ، وأن يجعل للقوم رسالته : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى إنما الهكم اله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » .

سورة مريم

الربع الاول :

كهيعص

(*) سورة مريم من السور المكية التى تقرر توحيد الله وقدرته وتنزيهه عما لا يليق به ، وتقرر عقيدة البعث والجزاء . وهى احدى تسع وعشرين سورة بدئت بحروف هجائية . وقد لوحظ ان هذه السور تتحدث عن غريب غير مألوف ، كالقرآن ، وأنباء الغيب ، والتقوية بشأن القلم والخلق ، والايجاد على طريقة غير مألوفة . ولعلها لهذا بدئت كلها ببداء غير مألوف . . وهو تلك الحروف الهجائية التى تنطق بأسمائها لا بمسمياتها . وذلك ليكون البداء الغريب قرعاً للأسماع واعدادا لتلقى غرائب لا تعرف السنن المألوفة .

زكريا ويحيى

وقد ذكرت سورة مريم من تلك الغرائب قصتين : قصة نبي الله زكريا وولده يحيى ، وقصة السيدة مريم وولدها عيسى ، وإرشدت فى أولها ان ما ستحدث به عن زكريا واجابة دعائه ، اثر لرحمة الله به ، ولا ريب ان الخلف الصالح ، الذى يحتفظ بمكانة أبيه ويقوم بمهمته من بعده ، امتداد لحياة الأب واستمرار لاثر يتحقق نفعه فى الممات ، كما تحقق نفعه فى الحياة .

الدعاء المجاب

عرف زكريا بدراسة احوال إقاربه ان ليس فيهم من يطمئن اليه فى القيام بدعوته ، ورأى رحمة ربه لمريم وهى فى كفالتها — كما تحدثت عنها سورة آل عمران — فشجعه ذلك على دعاء ربه ان

(*) الآيات من أول السورة حتى نهاية الآية ٣٦ هـ

يمنحه على كبره وليا يرثه في مهمته ، فابتهل بعجزه وضعفه وخوفه من أقاربه : « رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا » ، « وانى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا » . فاخترق دعاؤه الحجب واستجاب له ربه : « يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى » ، واكمل البشرى بالخلال الطيبة التى صاغ بها عطيته ، فأخذ السرور من زكريا مأخذه ، وعاد الى المناجاة فرحا مستبشرا : « رب انى يكون لى غلام » . فيسمع من ربه الكلمة النافذة : « هو على هين - وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا » . . فيعود زكريا ملتبسا علامة يعرف بها حصول الحمل ، ويتعجل بها السرور الواقعى : « رب اجعل لى آية » ، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا » . وقد جاءت هذه الحالة فكان لا يخاطب قومه الا بالوحي والاشارة .

وعبرتنا من قصة زكريا أن أقرب الدعاء الى الاجابة ما كان نابعا من القلب وخفيا حتى عن النفس ، ومقترنا بدلائل الذلة والحاجة ، وأخيرا ما كان مقصودا به وجه الله والنفع العام .

قصة مريم

وتذكر السورة قصة مريم وقد آخى القرآن بين القصتين في غير موضع ، وقصة مريم أدخل في الغرابة من قصة زكريا . ولذلك ذكرت قبلها تمهيدا لها ، وقد تحدثت سورة آل عمران عن ولادة مريم وبشارتها بعبسى وبشائه فى بنى اسرائيل . وتحدثت مسورتها هذه عن حملها بعبسى ، وعن موقفها حينما تمثل لها روح الله بشرا سويا ، وعن خواطرها النفسية حينما بشرها بالغلام : « انى يكون لى غلام ولم يمسننى بشر ولم أك بغيا » . ومضت الخواطر تلعب بنفس مريم حتى جاء زمن الوضع فتضاعف همها ، واشتد حزنها ، لا لشك فى نفسها ، وانما لتقدير ظنون الناس فيها « يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا » . فبشيتها الله بآياته ، وينزع منها عوامل الاضطراب والخوف : « فناداها من تحتها الا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا » ولكن مريم لا تزال حاجتها النفسية تلح فى معرفة ما تجيب به قومها . وهى لنفسها اعرف ، ولا تملك من امر الناس شيئا ، فتلبيها الرحمة الالهية : « غاما ترين من البشر

أحدا فقولى انى نذرت للرحمن صوما . وقد كان من قومها ما قدرت : « يا أخت هرون ما كان أبوك أمرا سوء وما كانت أمك بغيا » . فالتزمت الصمت وأشارت الى كلمة الله ، فأجابهم بلسان بين واضح : « انى عبد الله آتانى الكتاب ، وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبراً بوالدتى ، ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام على يوم ولدت ، ويوم أموت ويوم أبعث حيا » .

بذلك تمت نعمة الله على مريم كما تمت على كافلها من قبل . وهكذا أجمل عيسى وهو فى المهد رسالة السماء الى الأرض . « ذلك عيسى ابن مريم قول الحق » ولكن الأهواء أخذت بالناس فى شأنه الى جهات متباينة ، فمنهم من قال به على مريم بهتاناً عظيماً ، ومنهم من قال به على الله شيئاً ادا : « ما كان الله أن يتخذ من ولد سبحانه ، اذا قضى أمرا فأنما يقول له كن فيكون وان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » .

الربع الثانى :

قصة ابراهيم

(*) وتذكر الآيات ، بعد قصتى زكريا ومريم ، قصة ابراهيم ، ولابراهيم مكانة انعقدت عليها القلوب . وقد عنى القرآن بالحديث عنه عناية خاصة . فتحدث عن امامته ، وعن بنائه البيت ، ودعوة الناس التى حجه ، وتحدث عن رحلته ، وأسلوبه فى الدعوة والحجاج ، وتحدث عن كرمه ، وتضحيته بنفسه وولده ، وتحدث عن وصيته لذريته ، وتحدث عن علاقة محمد به ، وبين انه أثر دعوته ، وان رسالته من رسالته . ومن ذلك كله اتخذ القرآن حجة لمحمد على مناويله من مشركين وكتابيين

وقد قال بعض العلماء فى ابراهيم : « كان فتى الفتيان ، سلم قلبه للعرفان ولسانه للبرهان ، وبيته للنيران ، وولده للقربان وماله للضيفان ، وأهله للطوديان واقرا كل ذلك فى القرآن » .

(*) الآيات من ٤١ الى نهاية الآية ٦٢ من سورة مريم »

بهذه ونحوه خلد الله ابراهيم : « واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا » . وكان من مظاهر ذلك انه ما من مسلم ولا كتابي ولا مشرك الا وهو يقدر ابراهيم ، وما من مسلم يصلى ليلا او نهارا فرضا او نفلا ، الا ويدعو الله في صلاته ان يصلى ويسلم على محمد ، وعلى آله ، كما صلى وسلم على ابراهيم وعلى آل ابراهيم . وهذا هو ابراهيم الذى يأمر الله نبيه ان يذكره لقومه ، فيخففوا من حداثهم ، وأن يذكره لنفسه فيتأسى به ، ويهتدى بهديه .

أسلوب ابراهيم في الدعوة

وتخص سورة مريم جانبها من جوانب ابراهيم هو أسلوب الدعوة بالحلم الواسع ، والأدب الجم ، الذى من شأنه الاستيلاء على العقل المعاند والنفس العازمة ، مع وضوح الحجة وقوتها ، والتنبيه على مواضع الخلل والفساد : « يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ، يا أبت انى قد جاعنى من العلم ما لم يأتك فاتبعتى اهدك صراطا سويا ، يا أبت لاتعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا ، يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا » . وهكذا يسلك ابراهيم في دعوة أبيه طريق الحكمة والموعظة الحسنة ، فيقابله أبوه بالشدّة والانكار والتهديد : « لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا » فيقابل ابراهيم تهديد أبيه بالسلام عليه والدعاء له : « سلام عليك مسأستغفر لك ربى انه كان بى حفيا . واعتزلكم وما تدعون من دون الله وادعوا ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا » . وهكذا تقف البنية البارة من الأبوة القاسية . ومن قبل وقتفت هكذا الأبوة الرحيمة مع البنية العاقّة ، دعا نوح ربه لنجاة ولده ، فعاتبه ربه وبين له أنه ليس من أهله ، ولكن للأبوة مكانتها ، فلم ينكر الله على ابراهيم سلامه على أبيه ولا دعاءه له ، احتفاظا باحترام البنية للأبوة وان كانت مشرقة ضالة . « ووصينا الانسان بوالديه حسنا وان جاهدك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعمهما » . يعتزل ابراهيم أباه وقومه ، ويلقى بنفسه في أحضان ربه ، فيهبه الذرية الصالحة التى تسير في طريقه وتواصل دعوته : « فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا » .

رسل كرام

ثم تتفنى الآيات بذكر موسى وما كان عليه من صفاء النفس وإخلاص القلب لله ، وما خصه الله به من المناجاة والتكليم والتقريب : « وقربناه نجيا » ، ثم تذكر اسماعيل ، وما كان عليه من الصدق مع نفسه ، ومع ربه ومع أسرته التي هي درعه في دعوته ، والصدق حلية الايمان وسبيل النجاح ، وطريق الخير والفلاح . .

وتذكر ادريس وما كان فيه من مكانة الصديقية والرفعة عند الله .

وبعد أن تذكر الآيات هؤلاء الرسل كلا بخاصته ، وتشد بذكرهم أزر الرسول في دعوته ، تعود فتجمعهم في إطار من الشرف الإلهي ، وتنسبهم جميعا إلى آدم . فتربط بينهم برباط الرحم الإنساني العام ، كما ربطت الرسالة بينهم برباط الوحي الإلهي .

ثم تشير إلى الرباط النسبي الخاص بذرية نوح ومن كان معه في السفينة ، والخاص بذرية إبراهيم وإسرائيل ، ثم تذكر امتيازهم الديني ومكانتهم الربانية : « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ومن هدينا واجتبينا ، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا » .

وبإزاء هذه الشجرة الربانية النورانية تضع الآيات شجرة جافة مظلمة ، انحرفت في وجهتها عن سلسلة آبائهم الأولين ، تغلبت عليهم الشهوات ، وسخرتهم الأهواء وأنستهم حق الله ، وسجلت عليهم سوء العاقبة ، ولا نجاة إلا لمن عاد إليه رشده فادرك الحق ، وسلك طريق المرضيين عند الله وأولئك جزاؤهم « جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتيا . لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما ، ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا » . .

الربع الثالث :

من وصف الجنة

(*) قال تعالى : « تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا » وعد الله فى الآيات السابقة الذين تابوا وآمنوا وعملوا الصالحات بالجنات ، ثم وصفها بياناً لمكانتها وعلو شأنها بأنها ليست كجنات الدنيا تزول وتغنى ، ويعتريها النقص والذبول ، وإنما هى جنات عدن واقامة دائمة ، وبأنها منحة الرحمن لعباده جزاء ايمانهم بها عن طريق الوحي دون رؤية ومعينة ، وبأنها مطهرة من لغو الدنيا وباطلها ، وان كل ما فيها غذاء للأرواح ، وسلام وامان ومشاهدة « ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا » وتاكيدا لاستحقاقهم اياها يخلع الله عليها صفة الميراث الذى يصل الى الانسان بحكم القانون العام الذى لا اختيار له فيه ، وكثيرا ما تستعمل كلمة « الارث » ولا يراد منها الانتقال من مالك سابق الى آخر لاحق ، وإنما يراد بها ثمره العمل والجهود وذلك كما يقال : هذا عمل يورث الشرف ، ومعناه يحصله ويخلده . ومن هذا قوله فى جزاء العاملين بالجنة : « تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا » .

ونظرا الى ان أهم أهداف البيان القرآنى تقوية الجانب الروحي ، ولغت النظر الى ما يؤازر التقى فى تحمل اعباء التكليف ، كان من سفته المفاجأة فى اثناء الموضوعات الخاصة بما يجدد للقلب نشاطه ، ويجعله على اتصال دائم بربه يستمد منه العون والقوة ، ويطمئن به على حسن معونته ، وبلوغ غايته . .

ترى ذلك فى سورة البقرة اذ يفاجئ وهو فى أحكام الطلاق والأسرة بقوله : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين » .

وفى سورة طه اذ يفاجئ — وهو فى حديث يتصل بالناس جميعا — بقوله فى شأن خاص بتلف الرسول على تلقى الوحي : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى اليك وحيه وقل رب زدنى »

(*) الآيات من ٦٢ الى آخر سورة مريم .

علما . ومن ذلك قوله في سورتنا على السنة ملائكة الوحي في شأن نزولهم على النبي صلى الله عليه وسلم وطمانتهم اياه على السير فيه الى النهاية : « وما ننزل الا بأمر ربك ، له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا ، رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا » . .

البعث حق

ثم تنتقل الآيات وترد على حجج المكذبين في انكار البعث : « ويقول الانسان انذا ما مت لسوف أخرج حيا ، أو لا يذكر الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئا » . ثم تفرض الآيات وقوع البعث وانه غير محتاج الى برهان ، وتترك الحديث عن إمكانه الى الحديث عما يكون فيه لهؤلاء المنكرين من مشاهد العذاب ، وما يلقون من آلام : « فوريك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا » .

غرور

ثم تذكر غرور الكفار بدنياهم ، واعتزازهم بأموالهم ، وزعمهم انهم متفوقون بها عن هؤلاء المؤمنين الفقراء الذين لا جاء لهم ولا سلطان ، وترد عليهم بذكر أسلافهم الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالا : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ، وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورثيا » . وترشد الى تمكينهم من ظواهر هذه الحياة ليس الا اغراقا لهم في الفتنة والاختبار ، وسيرون عاقبة أمرهم وأمر الذين بهم يستهزئون ، سيحصى عليهم كل شيء وسيجمعون في ساحة العدل ، يوم لا ينفع مال ولا بنون : « فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا » . « سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا ونثره ما يقول ويأتينا فردا » .

زعماء الضلال

ومن عادة الضالين في كل زمان أن ينتحلوا لهم أئمة وزعماء ، يصورهم للناس أن بيدهم عزهم وفلاحهم . وعن ذلك الطريق

يضلون كثيرا من الناس عن سبيل الله . والآيات تؤكد لهؤلاء وأمثالهم ان هؤلاء الأئمة المنتحلين سيترعون منهم ويكفرون بعبادتهم ، يوم تتكشف الحقائق ، فيحشر المتقون الى الرحمن وفدا . ويساق المجرمون الى جهنم وردا ، ليس لهم من شافع ولا نصير .

ثم تعرج الآيات على زعم باطل ، صوره الوهم الفاسد ، والهوى المتبع لكثير من الطوائف ، فاتخذوه عقيدة يذيعونها وينتقصون الله بها ، ينافحون عنها ، ويفسدون بها فطرة الله التي شهد بها كونه في تنزيله الله عن الوالد والولد : « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا ادا . تكاد السموات يتفطرن منه ، وتتشق الأرض وتخر الجبال هدا » .

صورتان

ثم تختم السورة بوضع صورتين متباينتين :

صورة للذين آمنوا وعملوا الصالحات يتجلى فيها ارتباط قلوبهم، وارتباط قلوب الناس بهم برباط المودة والمحبة : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا »

وصورة للكافرين الجاحدين ، تمزق العداوة فيها ما بينهم من صلات ، وتملا قلوبهم وقلوب الناس بالتباغض حتى يقضى عليهم بأيديهم ، ويفنى بعضهم بعضا ، فتتم عليهم كلمة الله : « وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا »

سورة طه

الربع الأول :

(*) وسورة طه من السور المكية الأولى ، وقد نزلت لشدة أزر الرسول ، وتقوية روحه ، وعدم التأثير بما يلقي من الكيد والعناد ، ولإرشاده إلى أن مهمته هي فقط التبليغ والتذكير ، وسينتفع بهذا التذكير من ظهرت نفسه وأشرق عليها نور الفطرة الطاهرة من الأهواء وزخارف هذه الحياة ، وأنه ليس من مهمته أن يؤمن الناس ، حتى تشقى نفسه ويضيق صدره بكفرهم وامراضهم : « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، إلا تذكرة لمن يخشى » .

وبعد أن ترفع عنه تبعة كفرهم ، تطمئن على نجاح دعوته ، من جهة أنها دعوة القوى القادر الذي خلق الأرض والسموات ويسط سلطانه بالرحمة على خلقه ، ونفذ تدبيره إلى بواطن ما خلق ، واكتنه علمه سر القلوب واحساسها .

ثم تجمل له أوصاف الجلال والجمال في كلمة التبليغ التي أمر بدعوة الناس إليها وتذكيرهم بها : « الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى » .

ثم تقص عليه ، تطمينا وتسلية : نبأ أخيه موسى وقد أرسل بما أرسل به وقبول بأشد مما قوبل به ، فصبر وكانت له عاقبة الصابرين . وكما تذكر له قصة الصبر على مكائد القوم ، ونتيجته في موسى ، تذكر له قصة التسرع والتأثر بالمغريات في آدم ، وما لحقه بعدم الثبات والعزم ، وبذلك عالجت السورة رسول الله من الناحية الإيجابية التي يريد الله أن يتحلى بها في دعوته وهي الصبر ، وعالجت من الناحية السلبية التي يريد الله أن يعصم نفسه منها وهي الحزن وعدم الثبات .

(*) الآيات من ١ إلى نهاية الآية ٤٧ من سورة طه .

ثم تختتم باجمال المبادئ التي تملأ قلبه بالصبر والوثوق بحسن العاقبة ، فتأمره بالصبر على ما يقولون ، وبتنزيه الله وتذكره الاعتماد عليه . وتحذره أن يمد عينه الى متعة الكافرين من زهرة الحياة الدنيا ، وتأمره بتزكية أهله وتوجيههم لعبادة الله وحده ليكونوا عوناً على أداء مهمته كما كان هرون عوناً لموسى .

ثم تنزع من نفسه خيال الحاجة الى الرزق وتكله الى الله المنعم الذي تكفل بحاجته ورزقه : « ورزق ربك خير وأبقى » . « نحن نرزقك والعاقبة للتقوى » ثم بعد أن تزوده السورة بالأسلحة التي يبذلها خواطر الضيق والحرَج ، تغرس في نفسه كلمة الواثق من نفسه ، ومن دعوته ، ومن عاقبته : « قل كل متربص فتربصوا فستعلبون من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى » .

معنى الشقاء هنا

تلك سورة طه ، ومن هذا العرض الوجيز يتضح ان الشقاء المذكور في قوله : « لتشتقى » ليس هو الشقاء الجسماني الذي نشأ من طول أقامته في التهجد على إحدى قدميه حتى تورمت ، وان « طه » ليست نداء له بمعنى يارجل ، أو فعلاً يأمره بأن يطأ الأرض بقدميه ، ليس شيء من ذلك كما تريد أن تفسره الروايات ، وليس من السهل — والرسول يعرف دين الله ويسره — أن يقبل شيء من هذا . كما انه لم يعهد في القرآن الكريم نداؤه صلى الله عليه وسلم باسمه العلم ، فكيف ينادى بأعم العناوين كما رجل ؟ . ثم كيف يقبل هذا وذاك وليس في السورة شيء يتصل بقيامه في عبادته على قدميه أو على أحدهما ، فالشقاء هو الشقاء النفسي الذي تولدت السورة من أولها الى آخرها علاجه .

و « طه » هي كأكوانها ، حرفان من حروف التهجي التي افتتح بها كثير من السور التي عرضت للتنزيل ومصدره ومائدته للناس ، وقد خطب النبي يعدد غيرها من تلك الحروف ولم يكن الخطاب دليلاً على أن الكلمة نداء له أو أمر بمعناها : « المص كتاب انزل إليك » . « الر كتاب انزلناه إليك » هذا هو الحق ، وللروايات أن تجول وتصول في كتب التفسير ، ولكن الله منزل الكتاب حافظه وحارسه .

قصة موسى

وقد قصت السورة من قصة موسى اختياره لتحمل الرسالة ، وأجبتها في التوحيد والعبادة والبعث « وأنا اخترتك ، فاستمع لما يوحى » وذكرت السلاح الذى منحه الله إياه في الدعوة ودره عليه وهو العصا واليد البيضاء ، وذكرت أمره بالتوجه الى فرعون الذى طغى ، وذكرت أن موسى في سبيل تحمل الرسالة طلب الى ربه أن يقوى قلبه وأن يسهل له أمره وأن يمنحه لسانا بينا ، وأن يجعل له وزيرا صادقا ، وتلك عدة الداعى في دعوته ، وان الله أجاب موسى الى ما طلب ، وذكره بكفالاته إياه من عهد المهد الى مراحل الاعداد والتنفيذ : « اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكرى ، اذهبا الى فرعون انه طغى ، فقولاً له قولاً لبنا لعله يتذكر أو يخشى » وهذا ارشاد الى طريق النجاح في الدعوة ، قد سلكه ابراهيم من قبل ، وأمر به محمد من بعد : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة » . وقد أثار علم موسى بطغيان فرعون وشدته الخوف في نفسه بعدم نجاحه ، فتلقى عليه تلك الكلمة التى تتلج جبال الخوف الراسخة عروقتها في جوف البحار : « لا تخافا اننى معكما أسمع وأرى » فماتلىء موسى ايمانا بمعية الله وحضائته ، ويتلقى من ربه مرة أخرى : « فأنايه فقولاً انا رسولا ربك فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى » .

الربع الثانى :

(*) وفيه يوجه موسى وهرون الانذار الالهى لفرعون وقومه ، ولم تشأ الحكمة الالهية أن يوجه الأخذ بالعذاب الى شخص فرعون اذا كذب وتولى وانما ربطه بالكذيب والتولى كيفما كان ، ومن أى انسان كان ، وفيه تنبيه على ما يفضب الله وتلف بالذ في توجيه الانذار .

(*) الايات من ٤٨ الى نهاية الآية ٨٢ من سورة طه .

اسئلة واجوبة

وقد سألها فرعون عن ربهما صاحب الوحي ، ومصدر الانذار ،
وسألها عن القرون الاولى وما تم في شأنها ، اختبارا لعلمها ،
وكأنه ظن ان الاحاطة بشئون الماضين من لوازم ادعاء الوحي
والرسالة ، وقد أجابه موسى عن السؤال الاول بآثار الربوبية التي
تنطق بها الفطر وتشهد بها الكائنات والنعيم : « ربنا الذي أعطى
كل شيء خلقه ثم هدى » أعطى كل شيء الوضع والشكل الذي به
تتحقق فائدته ، ثم أودع فيه القوة التي توجهه نحو تلك الفائدة .
وكان جواب السؤال الثاني أن شئون القرون الاولى ليس علمها من
خصائص النبوة والرسالة ، فنحن بشر لا نعلم الا ما علمنا الله ،
وانما هو من خصائصه سبحانه وتعالى فان شاء أعلمنا بها
وان شاء أمسكها عنا : « علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى
ولا ينسى » .

وجوب النظر فى الآيات

ثم يذكر موسى لفرعون بعض الآثار البارزة للقدرة الالهية ،
التي يجدر بفرعون أن ينظر اليها وأن يتعرف حقيقتها ومنشأها
وانعام الله بها عليه وعلى الناس : « الذى جعل لكم الأرض مهذا
وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من
نبات شتى ، كلوا وارعوا أنعامكم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى »
تبصرهم بالرب وترشدتهم الى جلاله وعظمته ، وتدفعهم الى الايمان
به ، هذا هو الجدير بالنظر فيه .

أشياء لا يفيد السؤال عنها

أما السؤال عن القرون الاولى فما فائدته ، وقد عميت الأبصار
عن النعم الحاضرة ، والآثار البارزة ، وفيه ان شأن أولى النهى
والعقول الا يتركوا البحث والنظر فيما ينفع ويفيد الى البحث
والسؤال عما استأثر الله بعلمه ودخل فى سر غيبه ، كحقيقة الشيطان
وعلى أى شكل هو ؟ وكيف يدخل فى جسم الانسان ؟ وكيف
يوسوس له ؟ وعن الجنة : ما مادتها ؟ ما سمعتها ؟ ..
وما أرضها ؟ ما سماؤها ؟ .. وما الى ذلك مما يترك به الانسان

الجاد النافع الى ما لا يضر ولا ينفع . ثم لا يفوت موسى ان يذكر فرعون بالمبدأ والموت والبعث ، رجاء ان تهزه تلك الاطوار التي تمر بالانسان فتخفض من كبريائه : « منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة اخرى » .

لجاج وحجاج

وامام روعة الادلة التي يرشد موسى اليها لا يملك فرعون الا ان ترتعد نفسه ، فلا يجد الا جواب المبهوت الذي يهرق بما لا يكون : « اجئنا لتخرجنا من ارضنا بسحرك يا موسى » . ومتى ، واين ، وكيف عرف ان الساحر يقدر على ان يخرج بسحره مثل فرعون وهو يزعم انه الرب الاعلى ؟ اللهم ان هي الا لجلجة الباطل ، وخذلان الافتراء .

بين موسى والسحرة

وينتقل فرعون الى تواعد موسى بسحرة مثله ، ويتفق معه على يوم العرض الذي يجتمع فيه موسى بالسحرة ، ويبدل فرعون أقصى جهده في جمع السحرة ، ويلتقى موسى بهم ، فيقول لهم في انفسهم قولا بليغا ، قايما بواجب الارشاد والتبليغ : « ويلكم لاتفتروا على الله كذبا فميسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى » ويتركهم موسى بعد نصيحهم يتنازعون ويتشاورون ، واخيرا جمعوا كيدهم وتواصوا فيما بينهم وقالوا : « ان هذان لساحران يريدان ان يخرجاك من ارضك بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى » . ثم يقبلون على موسى ويخبرونه بين ان يتقدم او يتقدموا ، فيشير عليهم بالتقدم : « فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم انها تسعى » فيوجس موسى في نفسه خيفة والانسان مهما بلغ من الايمان فانه يرى ان العقابفة بيد علام الغيوب فيطمئنه الله على موقفه : « لا تخف انك انت الاعلى » ويلقى موسى عصاه فتلقف ما صنعوا ، وهنا تخترق الحقيقة قلوب اهل العلم وتضيء لهم الحق في دعوة موسى فلا يملكون سوى ان يخروا سجدا : « آمنا برب هارون وموسى » . فتأخذ فرعون دهشة الحق ، ويتواعد بجلجلة الباطل : « آمنت له قبل ان اذن لكم انه لكبريكم الذي عليكم السحر » فيعتصمون بسلطان الحق ويشرق عليهم نوره ، ولا يعبتون بتهديده ، شأن

العلماء الواثقين بعلمهم « لن نؤثر على ما جاءنا من البيانات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا » . وستلقى جزاءك ، ولا يفوتهم أن يقرروا على مسامحة الحقيقة المقبلة التي أدركوها بعلمهم . . الفرق بين ما صنعوا وما ظهر على يد موسى : « انه من يأت ربه مجرماً فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا ، ومن يات به مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى »

علم نافع وعلم ضار

وهكذا تكون نتيجة العلم الحق ، أما العلم الذي لا يصل بصاحبه الى كبد الحقيقة ، ولا يرفعه عن مستوى المجرمين الذين ينكرون الحق ، فمجدير به أن يكون جهلاً وعمى لا علماً ونوراً . وهكذا انتضح الحق لسحرة فرعون بعلمهم الحق ، واشتد غيظ فرعون وشدد عليهم وعلى المؤمنين الخناق فيوحى الله الى موسى ، انقاذ لقومه ، وابقاء على دينهم باجتياز البحر : « ان أسر بعبادى فاقرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى » . وهكذا يبد الله اوليائه بما يرد كبد الاعداء . ولغرور الضالين طغيان يدفعهم الى الدمار والتهلكة ، ومن ذلك يلقي فرعون بنفسه وجنوده خلف موسى ومن معه « فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى » وكذلك تكون القيادة الطاغية والزعامة الضالة نودى بأمته الى مكان سحق .



قتل الانسان ما اكفره . ينقذ الله بنى اسرائيل على يد موسى ، ويرفعهم من الذل الذي كانوا فيه ، ولكن يعاودهم سوء التربية والنشأة ، ولا تقبل نفوسهم العزة فتهردوا على موسى الذي جاهد في سبيلهم حتى أنجاهم وأعزهم ، والآيات تذكرهم بتلك النعمة ، عليهم يخفون من شدتهم ويثوبون الى رشدهم : « كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحل عليه غضبى فقد هوى » ثم ترشد الى سنة الله في العفو والمغفرة مهما تضرخت الذنوب ، وعظمت الآثام والجرائم ، ترغيباً للعباد في الخير ، وتطهيراً لهم من الشر : « وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » .

سورة النمل

الربع الأخير :

(*) هذا هو الربع الأخير من سورة النمل ، وسورة النمل من السور المكية التي عالجت أصول الدين من التوحيد والرسالة والبعث ، وهي إحدى سور ثلاث نزلت متتالية ، ووضعت في المصحف متتالية : وهي سورة الشعراء ، وسورة النمل ، وسورة القصص واشتركت ثلاثها في المنهاج ، بدأت كل منها فنوهت بشأن الكتاب وما تضمنه من إرشاد وهداية ، ثم سلكت مسلك العظة والعبرة عن طريق القصص الذي يوضح سنة الله في معاملة المكذبين الأولين ، وعن طريق لفت الأنظار إلى آثار القدرة الباهرة التي لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء ، وعن طريق التحدث عن الأحوال والمشاهد الهولية التي يصيرون إليها أو تصير اليهم يوم البعث والجزاء .

وقد عرضت سورتنا فيما يختص بجانب البعث إلى إنكار القوم له وسخريتهم به حتى قالوا : « أنذا كنا ترابا وآبائنا أئنا لخرجون . لقد وعدنا هذا نحن وآبائنا من قبل أن هذا إلا أساطير الأولين » وحتى قالوا « متى هذا الوعد أن كنتم صادقين » وفي سبيل الرد عليهم ذكرتهم بعاقبة أسلافهم الذين كذبوا بالبعث : « قل سيروا في الأرض لمانظروا كيف كان عاقبة المجرمين » . وأرشدت الرسول عليه السلام أن ينذرهم بمشاهدة بعض أنواع العذاب الذي يستعجلونه ، وأنهم سيرونه قريباً في الدنيا بأيديهم وأيدي المؤمنين . وأن أرجاءه انتظارا لإيمانهم لمن فضل الله عليهم وهو عالم بما تكنه صدورهم ، ومحيط بكل غائبة ، وأنه سيقضي بينهم بحكمه فلا يضيع صدرك يا محمد بأعراضهم : « وما أنت بهادي العمى عن ضلالتهم » ثم تشير الآيات إلى ما يصيبهم من العذاب الأكبر الذي أعد لهم في الآخرة .

(*) نعمة الآيات ٨٢ إلى آخر سورة النمل .

وفى هذا تذكر بعض العلامات الدالة على قرب وقوعه ، وأن دابة لها من غرابة الشأن ما لها مستخرج لهم من الأرض تنطق بالحق الذى أنكروه . وإن الناس أعرضوا وضلوا عن آيات ربهم ، وقد تكلم الناس كثيرا فى شأن هذه الدابة وأسرفوا حتى قيل : أنها ولد ناقة صالح فر إلى حجر فتحت له فاه حينما عقر القوم أمه فدخله فهو فيه حتى يخرج علامة من علامات الساعة ، وماذا علينا لو وقفنا فى حديثنا عن المغيبات عند القدر الذى أخبر به القرآن ، ثم تركنا ما وراءه من التفصيل إلى اليوم الذى يأتى فيه تأويله وبيانه ، وليس الخبر متعلقا بعمل مطلوب من العباد ، وانها هو انذار ووعيد وتهديد .



فلنتقف عند حد العبرة ، ولا نخض فيها استأثر الله بعلمه « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات . فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا » .

ثم تسوق الآيات بعد هذه العلامة ، بعض الأحوال والمشاهد التى يراها الظالمون فى هذا اليوم : حشر لآخرهم على أولهم ، وغزع واضطراب يزلزل كل ثابت . ويقطع ما بين أجزائه من صلات : « ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون ، حتى اذا جاءوا قال اكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما أماذا كنتم تعملون » . « ويوم ينفخ فى الصور فنفزع من فى السموات ومن فى الأرض الا من شاء الله وكل أتوه داخرين » ومعناه : « صاغرين » . « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شيء » . وهنا أيضا تكلم الناس عن « الصور » فأخذوا يشرحونه ويصفونه ، وتكلموا بمن يحمله ، وعن عدد النفخات ، أهى اثنتان ، أم ثلاث ، أم أربع ، وعن أثر كل نفخة فى الكون وعن الذين يسلمون من الفرع المقصودين بقوله : « الا من شاء الله » تكلموا فى كل ذلك بما لا يتوقف عليه فهم العبرة ولا معرفة الهدف .

وواضح أن فعلا من الله يصدر عن قدرته النافذة يقض
هذه الحياة . ويخرجها عن نظامها ، ويسلم أهلها إلى حياة
ذات نعيم دائم أو عذاب اليم .

ثم أرشدت الآيات إلى أن المكلفين أمام شرع الله وديف
محسن فله خير من حسنته ، وأما مسمى فعاقبته الخزي و
« من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنوا
جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار » ثم تخطم السود
الوحية البالغة التي ترسم للنبي طريقه الذي يلزمه ، غير
صدره بكفرهم ، وأن هدايتهم لا تنفع احدا سواهم ،
إلى تعرف نعم الله والمداومة على شكرها بحمده . وأن يك
في كفرهم وعنادهم إليه سبحانه وسيظهر الله خزيهم يو
بأعينهم ، ما كانوا به يستهزئون : « قل الحمد لله سرية
فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون » .

سورة القصص

الربع الأول :

(*) سورة القصص ثلاثة سور ثلاث نزلت متتالية ، كما وضعت في المصحف متتالية ، الثلاث سور تتفق في منهجها وهدفها كما اتفقت في جو نزولها ، وقد لوحظ أن اللاحقة منها تكل أو تفصل ما اختزلت السابقة أو أجملت ، ولعل ما ذكرته سورة القصص في قصة موسى وفرعون يتضح في كثير منه انه تنهيم أو بيان لما أجمل في السورتين قبلها .

تسمية السورة

وعلى كل فهذه السورة هي السورة الوحيدة التي انفردت بحديث موسى عن نفسه وعن سبب هجرته من مصر الى مدين ، وهو المذكور بعد تفصيله بقوله تعالى : « فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين » ، فهو قصص موسى ، وهو في مصر مع المصريين ، وليس قصصه مع فرعون وقومه . ولعل هذا القصص الخاص هو الوجه في تسمية السورة « القصص » وقد كانت حياة موسى من يوم أن ولد سلسلة ذات حلقات متصلة من غرائب الأحداث ، تتجلى فيها — أولا وقبل كل شيء — رهبة الطفافة من كل ما يتخيلون ان فيه زمزعة ملكهم ، والقضاء على سلطانهم الذي يسخرون به الضعفاء ويسومونهم به سوء العذاب .

فرعون مرعوب

فما هو ذا فرعون يملو في الأرض ، يظلم ويستبد ، ويتخذ من رعيته سيوفاً يضرب بعضها بعضاً ، وتلك عادة الطغيان في كل زمان ومكان ، لا يدع الرعية تماسك وتحاب ، خوفاً من تكلمها

(*) الآيات من اول السورة الى نهاية الآية ٢٨ من سورة القصص *

على ازالة سلطانه والقضاء على غطرسته وقد كان من اثر تلك
الرهبة أن أوحى الى فرعون من بعض شياطينه أن وليدا يولد في
بنى اسرائيل يكون زوال الملك على يديه ، فيطير لب فرعون ويصدر
أوامره الظالمة الغاشمة بذبح ذكور المواليد ، ويبعث عسسه ،
وبيث عيونه لتعرف المواليد وتنفيذ الأمر فيهم كي يطمئن على عرشه
وسلطانه . ويولد موسى ، وتتلقاه قابلة فرعونية ، فيتولى الله
رعايته بما يرد على فرعون كيده فيه وطفئانه عليه : ولا يزال
رب موسى يرعى موسى حتى يعده لما يريد من زعزعة الجبروت
واذابة الطغيان ، والنهوض بالمستضعفين الى مصاف الزعماء
والقواد المصلحين والانبياء المرسلين : « ان فرعون علا في الأرض
وجعل أهلها شعبا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي
نساءهم انه كان من المفسدين ، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا
في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ،
ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » وهكذا
سنة الله في الطغاة الظالمين مع الضعفاء العاملين المخلصين ،
رايناها في فرعون وموسى ورايناها في محمد وأصحابه ، ورايناها
في كثير من الأزمنة وكثير من الأمكنة . وحياتنا الحاضرة اكبر شاهد
وأوضح مثال ، فهي سنة مطردة يعامل الله بها كل من حاد عن
طريقه وطفى وبغى وأخذ بالناس عن طرق الهدى والرشاد .

موسى الوليد

ولد موسى ونبى خبره الى فرعون واضطرب غؤاد أمه عليه ،
فألهمها الله وسيلة الحفظ والرعاية ، وطمأنها وبشرها : « وأوحينا
الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فآلقيه في اليم ولا تخافى
ولا تحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » تحمل أمواج
البحر موسى حتى تقف به على باب فرعون وأهله فينشرح لمنظره
صدر زوجته وتوصى بالمحافظة عليه « قررة عين لى ولك لا تقتلوه ،
عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا » .

من عجائب الأقدار

ومن عجائب الأقدار أن الله نجى موسى بالبحر من فرعون ،
واغرق في البحر فرعون على يد موسى ومغزى هذا ان الله يعد

للظالم قذيفة من صنع يده ، وانه يتخذ للظالم مقبرته التي تواريه مما كان يعير به فرعون موسى . نكان موسى قذيفة أطاحت بفرعون وعرشه ، وتعظم فرعون بالأنهار تجري من تحته فابتلعت البحر ، وفي هذا أكبر عبرة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا .

وصدق وعد الله مع أم موسى ، فردده اليها واحتضنته وهو ولدها ، ورعاه الله حتى نبت في بيت فرعون كريحانة زكية تفتت في تربة مليئة بالاشواك والأتذار ، فيعمل جهده على ازالتها والقضاء عليها ، ويتعرف بأبناء النبوة وسلالة الأخيار ويربط الايمان بينه وبينهم ويعبرون فيه الملجأ عند الشدائد ، ويستنصرونه في كربهم فينصرهم ، حتى كان ما كان : « فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين » .

ويتلقى موسى نبا ائتمار القوم به فيخرج من المدينة خائفا يترقب ملتجئا الى الله أن يهديه سبيل مدين وأن ينقذه من القوم الظالمين .

خبر موسى وابنتي مدين

يصل موسى الى مدين فيجد امرأتين معهما انعام تريدان سقيها ولكن يمنعهما الحياء والضعف عن مزاحمة الساقين فيتقدم اليهما ويسقى لهما . فيذهبان الى أبيهما ويخبرانه خبره ، فيرسل اليه احدهما : « ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين » . يطمئن موسى الى مضيفه الشيخ الذي أكرم منزله وأحسن مثواه ، ويرى الشيخ على موسى دلائل النبيل والامانة فيعرض عليه مصاهرته اياه في احدى ابنتيه ، على أن يرعى غنمه ثمانى سنوات او عشرة ، فيقبل موسى ذلك العرض ويتم الاتفاق ويحصل القران : « ذلك بينى وبينك ايما الأجلين قضيت فلا عدوان على والله على ما نقول وكيل » .

الربع الثاني :

(*) وفيه ان موسى عليه السلام وفى للشيخ الكبير بما التزم

(*) الآيات من ٢٩ الى نهاية الآية ٥٠ من سورة القصص .

في رعى الغنم ، ثم ارتحل بزوجه التي عرفها بالاستحياء ، وعرفته بالقوة والامانة ، وكانت سكنه وشريكته في تلك الرحلة الميمونة التي تلقى فيها رسالة الهدى والصلاح ، رسالة انقاذ المستضعفين من ضغط الطغاة الجبارين .

تكليف موسى بالرسالة

وهنا تذكر الآيات كيف وجه موسى الى مكان المناجاة الذي اختاره الله ليلقى عليه فيه نداء التكليف بالرسالة الى فرعون . يرى موسى نارا فيتوجه اليها ملتجئاً دفناً بدنياً أو هادياً بشرياً . يرى النور الذي لا يلحقه ظلام ، ويسمع الهداية التي لا يعتريها ضلال ، يسمع نداء ربه : « يا موسى انى أنا الله رب العالمين » ويدربه ربه وهو بين يديه على عدته التي يعتمد عليها في دعوته . يدربه على العصا يلقيها فتتهز كأنها جان ، ويدربه على اليد يدخلها في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء : « فذلك برهانه من ربك الى فرعون وملئه انهم كانوا قوماً فاسقين » يتلقى موسى أمر ربه ويذكر انه قتل منهم نفساً ويخاف ان يقتلوه ، ويطلب من ربه أن يشد أزره بأخيه ، ويحييه الله الى طلبه : « سنشد عضدك بأخيك ونجعل لك سلطاناً فلا يصلون اليك بآياتنا انتما ومن اتبعك الغالبون »

عناد فرعون وقومه

يصل موسى الى فرعون ويبلغه رسالة ربه فيسخر فرعون منه ويأخذه الكبر والجبروت ويهزأ بالدعوة : « ما هذا الا سحر مغترى وما سمعنا بهذا في آياتنا الاولين » ، ويلقى على قومه حجاب التضليل : « يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى » ويشدد طغيانه ، فيهزأ حتى بالله رب العالمين : « فأوقد لى هلمان على الطين فأجعل لى صرحاً لعلى أطلع الى اله موسى » .

سنة الله مع أعدائه

استكبر فرعون وجنوده بغير الحق وكانت العاقبة كما صور الله : « فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » وهكذا كانت سنة الله مع أعداء الله ، يجعلهم في الدنيا

أئمة يدعون الى النار ثم لا يسلمون منها من كيد الله ومكره ، ويوم القيامة لا ينصرون ، وهكذا سنته مع أوليائه دعاة الحق ، يجعلهم كما وعد أئمة في الهدى ويجعلهم الوارثين : « ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما اهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون » . تلك قصة موسى مع فرعون وملئه ، أوحاها بجميع أطوارها الى محمد عليه الصلاة والسلام وفي كل طور منها أبلغ العظات والعبر لقوم يذكرون ، ثم قصها محمد على أهل مكة . وموقفهم منه عليه السلام هو موقف فرعون من موسى ، وخلدها الله في كتابه لتكون العظة أتم والعبرة أشمل ، يطمئن بها في كل زمان دعاة الحق على دعوتهم ، ويأخذ منها الضالون المفسدون ما يردهم عن طغيانهم ويصبرهم بسنة الله مع أسلافهم .

انباء أوحى بها الله

يقص الله على محمد قصة موسى . ثم يوجه اليه الخطاب بها يقطع شك النفوس في انه يبلغ عن نفسه ، فيذكر له انك تقص عليهم هذا القصص وما كنت مقيما في أهل مدين تتلقى عنهم نبأ موسى في سقى الأنعام ولا نبأه في الزواج ، ونبأه في الأجلين . تقص عليهم هذا القصص وما كنت مع موسى اذ ناداه ربه وحمله الرسالة ، ولكنها احداث وقعت وتطاول عليها الزمن حتى نسي الناس رسالة ربهم وعادوا الى حلف فرعون واستكباره ، فأرسلناك اليهم تجدد لهم عهدنا وتذكرهم بآياتنا وتقص عليهم أنباء المكذبين من قبل ، لئلا تكون لهم علينا حجة لئلا يقولوا : « لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين » . فبك أبطلنا حجتهم وقطعنا أعدارهم فقابلوك بما قابل به فرعون موسى ، وكانت قضية العقل تقضى عليهم بالإيمان والتسليم . ولكن توارث الضلال شأن الضالين المضلين ..

والحق لا يسلم من باطل يحاول تزيفه ، واطفاء حرارته في النفوس ، فقابلوا محمدا بما قابل به فرعون موسى وانكروا عليه حجته وقالوا : « لولا أوتى مثل ما أوتى موسى » . فهل آمنوا بما أتى به موسى ؟ . اولم يكفروا به من قبل لم يقولوا عن موسى وأخيه : « سحران أو ساحران تظاهرا وقالوا انا بكل كافرون » فهو لاء من أولئك .

ومسلك أهل الضلال واحد ، وحجتهم الزائفة واحدة تشابهت قلوبهم فتشابهت اقوالهم . أنكر أسلافهم دعوة موسى وأخيه . وأنكروا هم دعوة محمد وهما دعوة واحدة وهديهما واحد فهل لهم أن كانوا طلاب حق وهداية أن يأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما ؟ . . أما أن يكذبوا دون أن يقدموا حجة أو يأتوا بخير وهداية ، فهذا ليس منطق العقل ، ولا منطق الحكمة ، وإنما هو خداع الهوى وسلطان الضلال : « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدي القوم الظالمين » .

الربع الثالث :

استمرار الجحود بعد تتابع الحجج

(*) نوع الله لأهل مكة أساليب الدعوة ، والوان العظة والاعتبار ، نبه عقولهم للنظر في آثار قدرته ولفتهم لتدبر سنته ، وكشف لهم عما أعد من عذاب مقيم ، وخاتمة سيئة للمكذابين المفسدين ، واتباع القول في ذلك كله ببعض ، ووأفاهم بحججه وأمثاله منجما ، ليطلعوا كل يوم على حجة فيتدبروها ويعقلوها ، عظة بعد عظة ، وعبرة بعد عبرة . ومع هذا لم يؤمنوا بل ظلوا على الاعراض والتكذيب ، ولو كانوا طلاب حق لكان لهم من توصيل القول ، وتصريف الآيات ما أنار لهم السبيل ، وأوضح أمامهم الطريق ، فلا تبتئس يا محمد بكفرهم واستمرار كيدهم وحسبك في حقبة دعوتك ان الذين تلقوا دعوة الله من قبل ، وآمنوا بكتبه السابقة ، فاشرقت قلوبهم بنور الحق ، يدركون أحقيتها وأنها تلتقى مع دعوة أخوانك السابقين ، ويؤمنون بها كما آمنوا بما أنزل من قبلك : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين »

ثناء وجزاء

وهنا تعرض الآيات لجزاء هؤلاء الذين سلمت غطرهم ولم تفسدها العصبية الضالة ، كما تعرض لأوصافهم التي استحقوا

(*) الآيات من ١٥ الى نهاية الآية ٧٥ من سورة القصص .

بها ذلك الجزاء العظيم ، فتذكر صبرهم في مواقف الدعوة الى الحق ، وتذكر حلمهم واحسانهم لمصدر اساءتهم ، وتذكر سخاءهم وانفاقهم في سبيل الله ، وتذكر ترفعهم بأنفسهم عن مجارة السفهاء واعراضهم عن خطتهم والسير في طريقهم ، والاختلاط بهم : « واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا : لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين » . فذلك سنة المؤمنين السابقين ، فاستقم أنت ومن آمن معك عليها ، ولا يحزنك الذي يقولون فائهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ان ايمانهم ليس مطلوباً منك ، ولا تاتوا لرغبتك ، وانما هو تابع لما يعلمه الله في انفسهم من طهر وصفاء ، وبه فقط تتحقق هدايتهم ، وبه يتوجهون الى الايمان : « انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو اعلم بالمهتدين » . كان القوم يعتذرون عن عدم ايمانهم بالخوف من اقوامهم فيكون بهم ويتعضون عليهم ان هم آمنوا بمحمد ودعوته : « ان تتبع الهدى معك تتخطف من أرضنا » ومعناه انهم يصيرون اتباعاً بعد ان كانوا متبوعين ، ويجردون من سلطانهم بعد ان كانوا ذوى سلطان مرهوب ، فترد عليهم الآيات بأن هذه حجة مهلهلة وخيال كاذب ، وهم باطل : فالله الذي مكن لهم من حرم يأمن فيه الخائف ، ويشبع فيه الجائع ، ويجبى اليه الثمرات لا يعجزه ان يحفظهم وان يمكن لهم ضد من يناوئهم ، ولو انهم أنصفوا لعرفوا ان استمرارهم على الكفر ورد الحق وانكار سبيل سنة الله لتسليط دعاة الحق عليهم وتمكينهم منهم : « وكم اهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا ، وكنا نحن الوارثين » .

ثم ترشدكم الآيات الى ان ما هم فيه من جاه ومال وسلطان مآله الى الزوال ، وانه لا يدفع عنهم شيئاً من قضاء الله : « وما أوتيتهم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون » . ثم تضع الآيات أمامهم صورتين متقابلتين ، وتحكمهم في أى الصورتين خير الى عقولهم وضماثرهم ، صورة الذين يلبون دعوة الحق وبه يؤمنون ، وصورة الذين يرغبونه وبه يكفرون : « آمن وعدناه وعدا حسنا فهو لآقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين » .

ثم تذكرهم بما سيكون يوم القيامة بينهم وبين شركائهم من

محاولة تخلص بعضهم من بعض ، وتبرؤ متبوعيههم من تابعيههم ، وبما سيكون منهم حين يسألون عن موقفهم من الرسل . فتتملكهم الحيرة وتلزمهم الحجة : « ربنا هؤلاء الذين اغويننا ، اغويناهم كما غويننا » أى لم يكن لنا سلطان فى غيهم وانما عرضنا عليهم أن يغووا باختيارهم كما غويننا . « تبرأنا اليك ما كانوا آياتنا يعبدون » . « ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ، فعبيت عليهم الانبياء يومئذ ، لهم لا يتساءلون » .

النبوة شأن من شئون الله

وكان القوم يستنكرون أن ينزل الوحي على رجل فقير يتيم من بينهم وقالوا : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » ، فترد عليهم الآيات بأن الانطفاء للنبوة كالخلق ، شأنان من الشئون الخاصة بالله . فكما لا يخلق الا بمشيئته ، لا يصطفى الا بمشيئته ، فهو وحده العليم باستعداد خلقه وصلاحيتهما لما يريد : « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة » .

ثم تعود الآيات وتذكرهم بنعم الله عليهم ، ورحمته بهم فى تنظيم الليل والنهار على وجه يمكنهم من طيب الحياة . وتحاكمهم الى الفطرة فى الاعتراف بأن لا قدرة لاحد سواه فى ذلك التنظيم ، اذ هو جعل الليل أو النهار سرمداً : « من اله غير الله ياتيكم بضياء ؟ .. من اله غير الله ياتيكم بليل تسكنون فيه ؟ » فان استجابوا للحجة فقد آمنوا والا فقد عرضوا أنفسهم ليوم لا تنفعهم فيه شفاعة الشافعين ، ويضل عنهم ما كانوا يفترون .

الربع الرابع :

علاج لفرعات الشر

(﴿ يعجز الناس فى دنياهم بما لهم من جاه ومال وسلطان ، وكثيراً ما تصرفهم نعم الله عليهم الى البطر .. تدفعهم الى الطغيان ، وتقطع ما بينهم وبين الله من صلوات ، فينكرون الحق ، ويتزعمون ﴾)

(﴿ الآيات من ٧٦ الى آخر سورة القصص :

عصابت الشر والفساد ، وكثيرا ما عالج القرآن هذه النزعة في الانسان : فنبه بقصصه الى عاقبة الطغيان والبطر ، وإلى أن الجاه مهما عظم ، والمال مهما كثر ، والسلطان مهما اتسع ، فانه لا يرد عن صاحبه شيئا من قضاء الله اذ هو استمر على طغيانه وبطره ، وانه لا ينبغي لعاقل أن يغتر ببسمة الدنيا ، فانها كما يقال : خداعة غرارة ، وانه لا نجاة من خداعها الا بالايان والتقوى والعمل الصالح ...

قارون وامواله

بهذا مضت سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وفي سبيل تقرير هذه السنة يقص الله علينا أمر قارون : كان من قوم موسى ، ولكنه لم يحفظ للقرابة حقها ، بل بغى وتكبر ، واتخذ نعم الله سبيلا لكيد عباد الله . انعم الله عليه بمال تعجز الجباعة القوية عن حمل خزائنه ، أو حمل مفاتيحه ، ونسى حق الله في ذلك المال ، واعتقد طغيانا وكفرا انه من سعيه وكده ، وانه سيق اليه باستحقاق ذاتي ، واعانه عليه حسن تدبيره ، ونفاذ امره وسلطانه ..

وقد حاول عقلاء قومه ارشاده ونصحه وتذكيره بأن الدنيا لا يصح الاطمئنان اليها ، وان احوالها في تغير وتقلب ، وانه لا عاصم من شرها الا الايمان بالحق ، والعمل الصالح ، وان سعادة الانسان انما هي في أن يتخذ من يومه لغده ، ومن دنياه لآخريته . قدم له عقلاء قومه ما استطاعوا من نصح وتذكير ، ولكن ران على قلبه ما امتلأ به من ضلال وطغيان فاهمل مواعظهم ، وخرج بطرا في زينته ، فاغتر به ضعاف العقول ، وتمنوا أن ينالوا مكانته . ولكن العقلاء ، الذين يقدرون الدنيا قدرها ، ويدركون منها ما لا يدرك غيرهم ، أخذوا يؤنبونهم على هذا التمني ، ويؤكدون لهم أن وراء هذه المظاهر الفاتنة الفاتنة ما هو أسوأ منها ، وهو معرفة حق الله في نعمه وان للبغي من العواقب ما يجدر بالعاقل أن يقدره ، وان يدخله في حسابه ، وقد صدقهم العواقب فلم ينفع قارون ماله ولا جاهه ولا سلطانه ، وما هي الا دورة فلكية حتى كان قارون ومظاهر دنياه في طي صحائف الماضي : « فحسفنا به وبداره الأرض لها كان له من ثمة ينصرونه من

دون الله وما كان من المنتصرين . وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكان الله ييسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن من الله علينا لخسف بنا ، ويكانه لا يفلح الكافرون»

حول زينة قارون

وقد ساق المفسرون كلاما كثيرا في وصف زينة قارون ، وفي كيفية خسف الأرض به ، وحسبنا فيها ما تدل عليه كلمة «زينة» بالنسبة لما عهد في مظاهر أرباب الجاه والمال ، وما تدل عليه كلمة « فحسفنا به وبداره الأرض » ، من زوال النعمة وانتزاع الملك والسلطان ، والذلة بعد العزة . ويعجبني قول الامام الرازي في هذا المقام : « والذي عندي في أمثال هذه الحكايات انها قليلة الفائدة ، وانها في أكثر الأبرم متعارضة مضطربة ، فالأولى طرحها ، والاكتفاء بما دل عليه نص القرآن ، وتفويض سائر التفاصيل الى هالم الغيب » .

وأرجو أن نهج في تفسير كتاب الله هذا المنهج الدقيق الذي يحفظ علينا وعلى الناس إيماننا بجلال معاني القرآن وقصصه الحق الذي لا ريب فيه ..

قص الله علينا في السورة قصة فرعون ، وكيف كانت عاقبة علوه وفساده ، وقص علينا قصة قارون ، وكيف كانت عاقبة يغيه ، وتكبره، وكلها سنن مطردة في معاملة الله للمتكبرين المفسدين . ثم ختمت السورة بالارشاد الى أساس الخير والسعادة في الدنيا والآخرة : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين » ..

تربية

شأنان لابد من تربية النفوس عليهما حتى تحظى بالاستعادة عند الله : تطهير النفس من ارادة الظلم والافساد في الأرض ، واتقاء ما يفضب الله من أهمال احكامه وشرائعه ، واهمال سننه ونظمه، وقد نيه القرآن كثيرا على أوصاف المتقين ، الذين ضمن الله لهم عز

الدنيا وسعادة الآخرة ، فعلينا أن نتدبرها لنعرف كيف تتكون التقوى في النفوس ، وكيف تبدو آثارها في نفع البلاد والعباد .

منزلة الرسول عليه السلام

انتقلت الآيات بعد ذلك الى شأن خاص بالرسول ، فطمأنته على المنزلة الخاصة والدرجة العالية التي أعدها الله له ، بما فرض عليه من تبليغ القرآن وبيان أحكامه ، والتي لا ينالها أحد سواه : « أن الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد » . وبقدر ما يتعلق أتباع محمد بالقرآن يكون لهم من ذلك المعاد وتلك المنزلة . ثم يلفت نظره الى أن انزال هذا الكتاب اليه وتخصيصه به لم يكن ليتوقعه في نفسه ، وإنما هو من رحمة ربه به ، ومن رحمته بعباده ، فتهسك به يا محمد ، ولا تكونن ظهيرا للكافرين . وادع الى ربك ، ولا تكونن في النفوس ، وكيف تبدو آثارها في نفع البلاد والعباد . هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون » .

مسورة العنكبوت

الربع الاول :

الناس امام الدعوات الجديدة

(*) من شأن كل دعوة جديدة دينية كانت أم سياسية ، أن تجد لها في الجماعة البشرية من يتقبلها ويؤمن بها ، ويضحى بنفسه وماله في سبيل نشرها وتركيزها واقتناع الناس بها ، وان تجد بازاء من يؤمن بها من ينكرها ويكفر بها ، ويسعى جهده في ظاهره وباطنه في مكافحتها والقضاء عليها . فمريقان مؤمن قوى الايمان واضحه ، وكافر شديد الكفر واضحه . فاذما ما امتدت الدعوة ، وظهر سلطانها ، اتصل بأهلها طمعا او رهبا دون أن يؤمن بها فريق ثالث تزييا بزيهم فيصلى مثلا كما يصلون ، ويصوم كما يصومون مادام في صفوفهم ، وما دام في امن من التكاليف الشاقة والتضحيات النفسية والمالية ، واذا ترك هذا الصنف ، في تردده بين ايمانه الظاهر وكفره الباطن ، كان معول هدم في جماعة المؤمنين ، وكان اشد فتكا بهم وبدعوتهم من أعدائهم البارزين .

لهذا اقتضت حكمة الحكيم أن يكون له في كل دعوة اصلاحية من انواع التكاليف ما يمتحن به المرء فيعرف منه الصدق ان كان صادقا ، ويعرف منه الكذب ان كان كاذبا ، وبذلك تطهر صفوف المؤمنين من عناصر التخذيل ، ويعرف خبيثهم من طيبهم ، وقد عنى القرآن كثيرا بلفت الأنظار الى فائدة الابتلاء بالتكاليف الشاقة من صنوف الجهاد ، وانواع البذل في سبيل الله : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتيكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله » .

(*) الايات من ١ الى نهاية الآية ٢٥ من سورة العنكبوت .

الابتلاء سنة في الأولين والآخرين

وفي هذا الشأن نزلت سورة العنكبوت ، وأرشدت الى أن الابتلاء سنة في الأولين ، وماضية في الآخرين : « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » .

عناية الله بالمؤمنين

وفي شد عزائم الصادقين المخلصين الذين يتقبلون في جد البلايا والمحن ترشدهم الآيات الى أن الباطل ، مهما قويت أنصاره ، وعلا زبده ، ماله الاضمحلال والزوال ، ولا بد أن يقع دعاته تحت سلطان الله القوى القاهر ، الذي لا مفر منه : « أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا سوء ما يحكمون » .

وتشد الآيات ازهم مرة أخرى فترشدهم الى أن الله لم يمتحنهم بالشدائد حبا في تعذيبهم أو لتحصيل كمال ينقصه وانها يمتحنهم بالشدائد تقوية لآيمانهم ، وثبिता لسلطانهم ، وتعظيما لأجرهم عند الله : « ومن جاهد فانا يجاهد لنفسه ان الله لغنى عن العالمين ، والذين آمنوا فعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون » ..

حقان محفوظان

وكثيرا ما يصدم الانسان ، في عاطفة ايمانه ، عاطفة أبوة تدعوه الى الكفر ، أو تدعوه الى ترك الجهاد في سبيل الدعوة التي يؤمن بها ، ولربما أضعفت تلك الصدمة صبر المؤمن ، وسولت له ترك ايمانه أو الاخلال بواجبه ، وفي حل هذا الاشكال ترسم السورة طريق الخلاص فتحفظ للأبوة حقها الذي لا يطغى على حق الله ، وهو الاحسان اليها ، وتحفظ لله حقه ، فلا تطاع الأبوة في الاشراك به : « ووصينا الانسان بوالديه حسنا وان جاهدك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما » .

من أوصاف المنافقين

ثم تنتقل الآيات بعد ذلك الى بعض شئون المنافقين ، فتذكر انهم

يضعفون عن تحمل ايذاء الكفار لهم ، ويجعلونه كعذاب الله مخشياً مرهوباً ، ولا يقدرّون على دفعه ، وبذلك يتزلزل ايمانهم ، وتضعف مقاومتهم . وتذكر ايضا أنهم لا يظهرون في صفوف المؤمنين الا حين تمام النصر والغلب : « ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا كنا معكم » .

وقد كان من صور تغيير الكافرين بضعاف الايمان أنهم يتكفلون لهم بخطاياهم ، وتحمل تبعات كفرهم ان كان هناك يوم للجزاء والحساب ، وقد عهدنا أن عناصر الفساد تغرى ضعفاء القلوب بالأمال الكاذبة اذا استقاموا معهم وعاونوهم فيما يريدون من شر وفساد ، والسورة ترشد الى هذا النوع من الخداع ، وتظهر الحقيقة جلية ناصعة : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم ، وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء ، أنهم لكاذبون » .

ابتلاء السابقين

ثم تعود الآيات فتترشد بالأسلوب التاريخي الى أن الابتلاء ليس شأنًا خاصًا بهحمد وأمنه ، وإنما هو شأن عام ، تقلب فيه نوح وقومه ، وتقلب فيه ابراهيم وشيعته حتى قيل : « اقتلوه أو حرقوه » فانجاه الله كما أنجى المؤمنين قبله . .

ولا يفوت الآيات أن تقرع أسماع المكين أثناء هذا القصص بالتبكي والسخرية على ما اتخذوا من دون الله أوثاناً لا يملكون لهم رزقاً ، وتأمّرهم بالنظر فيما خلق الله . . وبالسير في الأرض ليعلموا آثار قدرته . . وليؤمنوا بأنه رب النشأتين : الأولى والآخرة ، وأنه على كل شيء قدير : « وما أنتم بمفجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير » .

الربع الثاني :

عاقبة صبر ابراهيم

(*) وفيه بيان عاقبة الصبر الذي اعتصم به ابراهيم في الدعوة

(*) الآيات من ٢٦ الى نهاية الآية ٥٠ من سورة العنكبوت .

الى الله وفيما وجهه اليه قومه من كيد وايداء ، وقد كان منها انه اكتسب قوة من عشرته كان لها اثرها الواضح المستمر في الدعوة الى الله ، وهو ابن اخيه لوط ، ومنها ان الله اعزه بالهجرة التي مكنت له في القيام بدعوته ، ومنها ان الله اكرمه بذرية صالحة تنسج على منواله ، وتسير في طريقه وتفتح للناس طريق الهدى والرشاد ، وبذلك خلد ذكره ، وامتلات جميع القلوب بمكانته : « فآمن له لوط وقال انى مهاجر الى ربى ، انه هو العزيز الحكيم ، ووهبنا له اسحاق ويعقوب ، وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين » .

لوط وقومه

وتسير الآيات في تصوير ابتلاء الله لعباده المؤمنين ، والتنويه بشأن جهادهم وصبرهم على الكيد والأذى ، وما كان لهم من حسن العاقبة فتذكر لوطا وما قاساه في دعوة قومه الى التطهير من فاحشتهم التي شذوا بها عن الفطرة ، وافسدوا بها خلق الله حتى ضاق صدره ولم يجد ملجأ سوى الاستنصار بربه : « رب انصرنى على القوم المفسدين » فسمع الله نداءه ، وبعث اليه بجند الانقاذ ومدد النصر : « ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم ، وضاق بهم ذرعا ، وقالوا لا تخف ولا تحزن ، انا منجوك وأهلك الا امرأتك كانت من الغابرين ، انا منزلون على أهل هذه القرية رجلا من السماء بما كانوا يفسقون » .

عناصر الشر التاريخية

وتشير الآيات في التذكير بأهل البغى والعداء ، فتذكر مدين وتكذيبهم لشعيب ، وتذكر عادا وثمود وما كان منهم لهود وصالح ، ثم تذكر قارون وفرعون وهامان واستكبارهم في الأرض وثلاثتهم من عناصر الشر التاريخية ، وقد شرحت سورة القصص السابقة علوهم في الأرض ، وبغيهم على عباد الله .

ثم تضع الآيات أصابع المكين ، ومن يتخذ سبيلهم في محاربة الحق ، على حروف المعاقبة التي حلت بهم ، وطوقتهم بالوان من

عذاب الله : « فكلما أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض . ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون » .

عظة الحاضر ..

واذا كانت سنة الله في أخذ الظالمين واحدة ، فنحن في عذرنا هذا نرى ونسمع عن الرياح الحاصبة تقتلع الأشجار وتنزل بشاهقات العماير ، وعن الصيحات تخلع القلوب ، وتستلب الأرواح من الأشباح ، وعن البراكين تنفجر وتلتهم نارها القرى والمدن ، وعن الأرض تتفكك أوصالها وتغور طبقاتها ، وتصبح مقبرة لمن عليها ، وعن الفيضانات ، وقد مار تنورها ، وأنت على كل شيء من الحضارات .. كل ذلك نراه ، ويقف الجبارون أمامه حيارى ، ثم لا يلبثون أن يعودوا فيعملوا جهدهم في اختراع المدمرات من نفاثات وذريات بغيا من الإنسان على أخيه الإنسان . وكان جدير بهم إذا كانوا أرباب دين وإيمان أن يبذلوا جهدهم في وقاية خلق الله من عذاب الله القاهر بالسلام العام ، وإقامة العدل ، والكف عن المظالم ..

أوهن البيوت

وبعد أن تسبح السورة هذا السبح الطويل في سنة الابتلاء ، ومصير المكذبين الذين يفتنون الناس عن الحق ، توجه الى المكيين ، فتصور لهم ضعف الملجأ الذي اعتصموا به ، وهو الأوثان ، عن أن يدفع عنهم كيد الله وانتقامه وتجعل مثلهم ، في اتخاذهم آياها ، كمثل العنكبوت في اتخاذها بيتا من تلكم الخيوط الواهية الضعيفة التي تنسجها ، فلا تدفع عنها حرا ولا بردا ، ولا تحفظها من يد تمتد اليها ، ولا ريع يهب عليها ، فكذاك ولاية الأوثان لهؤلاء ، ولاية لا تسوق اليهم خيرا ، ولا تدفع عنهم شرا : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ، وإن أوهن البيوت لبیت العنكبوت لو كانوا يعلمون » .

مثل يأخذ بقلوب المؤمنين ، ويربهم شاسع الفرق بين من يتخذ الجاهل — الذي لا يقدر — وليا من دون الله ، يعتمد عليه ويستنصره

وبين من يتخذ المحيط بكل شيء — القادر على كل شيء — وليا يعبد ، ولا يعبد سواه : « ان الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم » « خلق الله السموات والأرض بالحق ، ان في ذلك لآية للمؤمنين » .

ثم تتجه الآيات الى أهل الايمان الحق في شخص رسولهم ، وترسم لهم طريق العصمة من التردى في هاوية هؤلاء الضالين المكذبين ، فتأمر بتلاوة الكتاب ، والانتفاع بهديه وارشاده، وقصصه وأخلاقه ، وأحكامه ودلائله . .

ثم توحى على وجه خاص بالصلاة وأقامتها ، فهي المعراج القوى الذى يصعد به المؤمن الى ربه ، وهى العدة التى يجاهد بها المؤمن نفسه وهواه ، وهى النور الذى يرى به عظمة مولاه ، وبه يراقبه فى سره ونجواه : « اتل ما أوحى اليك من الكتاب ، وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما صنعون » .

سورة غافر

الربع الثالث :

(*) هذا هو الربع الثالث من سورة غافر ، وقد بدأها الله بجملة من صفاته ، ذات الجلال والجمال ، وكان في مقدمة تلك الصفات صفة المغفرة التي يفتح بها للضالين المكذبين باب الرجوع اليه : « غافر الذنب وقابل التوب » . ولهذا البدء سميت بسورة غافر . وتسمى أيضا بسورة المؤمن ، لأنها انفردت — وهي تذكر بموقف المبطلين من قوم موسى عليه السلام — بذكر نصيحة مؤمن من آل فرعون ، قبضه الله للحق الذي يدعو اليه موسى من بيئة الكفر والعناد ، واخذ يلقي عليهم مواظله التي من شأنها أن تسبّل من قلوبهم محاربة الحق ، والاستكبار من قبوله . حذرهم تنفيذ ما عزموا عليه من قتل موسى ، وأنذرهم عاقبة استمرارهم في الطغيان ، وضرب لهم في ذلك الأمثال بمصائر المكذبين قبلهم . كما خوفهم عذاب الآخرة الذي سينالهم يوم الجزاء الذي لا عاصم فيه من أمر الله ، ودعاهم الى اتباع الحق ، وتبليّة الهدى والرشاد ، وأنكر عليهم تعلّقهم بالدنيا الزائلة ، وبين لهم أن العاقل يجب أن يربط نفسه بالباقي الدائم ، لا بالمتاع الفاني : « يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع ، وان الآخرة هي دار القرار » .

وكان آخر نداء وجهه اليهم انكاره عليهم — بعد أن تبين له الحق ودعاهم الى النجاة — أن يدعوّه الى ترك ذلك الحق ، وأن يدخل في باطلهم : « ويا قوم مالي أدموكم الى النجاة ، وتدعونني الى النار » . ويشرح لهم ذلك بقوله : « تدعونني لاكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم ، وأنا أدموكم الى العزيز الغفار » .

وأخيرا ، وبعد أن يبذل في نصيحهم أقصى الجهد البشري ، أعلنهم بكلمة الواقع من عقيدته ، الحريص على خير أمته ، المضحي بنفسه في سبيل الحق الذي يدعو اليه :

(*) الآيات من ٤٦ الى نهاية الآية ٦٥ من سورة غافر .

« فستذكرون ما أقول لكم وأفوض امرى الى الله ان الله بصير بالعباد » . وكانت عاقبته ان حفظه الله ورعاه ، وعاقبتهم ان نزل بهم الكيد والبلاء : « فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بال فرغون سوء العذاب » .

العبرة من القصة

وعبرتنا من هذه القصة امران : احدهما ان الحق ، مهما تكبل على اخفائه ورغضه اعوان الباطل ، لابد ان يقيض الله له من بيئة المبطلين انفسهم من يؤمن به ، ويغار عليه ، ويضحى بنفسه وراحته في سبيله حتى يظهره الله ..

وهكذا كان حق محمد ، وباطل المشركين ، وهكذا شأن كل دعوة الى الحق امام المبطلين في كل عصر ، وفي كل زمان .

ثانيهما : ان على من تبين له الحق وآمن به ان يبذل غاية وسعه في دعوة قومه اليه ، حتى اذا ايس منهم وايقن ان لا فائدة من دعوته اياهم اعتزلهم وما يعبدون من باطل ، وعندئذ يتولى الله امرهم ، ويوقع بهم شديد العقاب : « فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بال فرعون سوء العذاب » . « فلما نسوا ما ذكروا به أنجبنا الذين ينهون عن السوء ، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون » .

ثم تنتقل الآيات بعد ذلك ، وتصور للمبطلين موقف اتباعهم من متبوعيههم وتبرؤ المتبوعين من التابعين ، كما تصور التجاء الجميع الى جنود العذاب : « خزنة جهنم » يلتمسون منهم دعوة الله الى تخفيفه ، فلا يكون الجواب سوى تسجيل الخزي والعذاب عليهم ، وتبكيتهم على انكار الحق بعد ان قامت عليهم حججه ودلائله : « أو لم تكن تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ .. قالوا : بلى : فادعوا ، وما دعاء الكافرين الا في ضلال » .

ثم تضمن الآيات لدعاة الحق النصر والتأييد وتأمرهم بالقرام الصبر والتمسك بحبل الله في سبيل الدعوة اليه ، وتؤكد لهم أن معارضة المبطلين لم تكن ناشئة عن برهان ، وإنما هي اثر لكبر ملا قلوبهم ، وستضمحل قوتهم ببركة الاعتصام بالله : « فاصبر

ان وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشى والابكار .
ان الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان اتاهم ان في صدورهم
الا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله ، انه هو السميع البصير » .

ثم تلفت الآيات الى آثار قدرة الله في الكون ، فتذكر نعمته على
العباد بالليل الذي فيه يسكنون ، وبالنهار الذي فيه ينتشرون ،
وبالأرض التي عليها يقرون ، ومنها يرزقون ، وبالسماوات التي بمائها
ينتفعون ، وبنجومها يهتدون ، ثم تبرز لهم نتيجة كل ذلك التي هي
دعوة الحق : « ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين » . هو الحي
لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين » .

الرابع الرابع

(*) هذا هو الرابع الرابع والآخر من سورة غافر ، وقد ختم
الرابع السابق بجملة من صفات الجلال والعظمة ، تدعو الى افراد
الله سبحانه بالعبادة والتقديس ، والاتجاه اليه وحده بالحمد والثناء
على ربوبيته العامة للعالم ، وتحول بين الانسان المدرك لآثار هذه
الربوبية ، وبين الخضوع لغيره سبحانه ، وتحمله على تقرير الحق
في الربوبية والعبادة في نفسه ، وفي عمله ، وفي دعوته : « قل اني
نهيت ان أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاعنى البينات من ربي ،
وأمرت ان أسلم لرب العالمين » .

الله الخالق

ثم تعود الآيات الى تركيز العقيدة عن طريق لفت الانظار الى
جملة من الأدلة النفسية التي يدركها الانسان في كيفية خلقه وفي
الاطوار التي مرت به : « هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم
من عاقرة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم
من يتوفى من قبل ، ولتبلغوا أجلا مسمى ، ولعلكم تعقلون » .

(*) الآيات من ٦٦ الى آخر سورة غافر .

شأنه كن فيكون

هذه الأطوار ترشد بأوضح بيان الى أن الذى تولاه ، ودرج بالإنسان فيها : « هو الذى يحيى ويميت » والى أنه صاحب الأمر النافذ الذى لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء « فإذا قضى أمرا فأنما يقول له كن فيكون » وهذا شأنه لا يتغير : نراه فى كتلة العالم ، ثم نراه فى النبات ، وفى الحيوان ، وفى الإنسان ، وهو شأنه فى الحال ، وشأنه فى المآل ، يوجد « بكن » ويميت « بكن » . « وكن فيكون » شأنه الذاتى لا يتخلف ولا يزول . وإذا كان شأنه « كن فيكون » فالى أى جانب يذهب هؤلاء الذين ينكرون حقه الذى يغار عليه ، والذى أرسل به رسله ، وأنزل به كتبه ؟ . ان حجج الحق قد طرقتهم ، وأخذت عليهم جميع المسالك ، ولم تجعل لهم سوى مسلك واحد سيعلمونه حينما توضع الأغلال والسلاسل فى أعناقهم ويسحبون فى الحميم ، ثم فى النار يسجرون ، ثم يقال لهم : ان ذلكم الذى أنتم فيه « بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تمرحون ، أدخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فبئس مثوى المتكبرين » .

وبعد أن تصور الآيات مصير المجادلين بالباطل ، هذا التصوير الذى ينزع من الصدور قلوبها ، تعود فتأمر أهل الحق بالصبر والثبات : « فاصبر ان وعد الله حق » وتؤكد لهم أن مرد المعاندين الى الله سواء عجل لهم العذاب أم أخره : « فاما نريك بعض الذى نعدهم أو نتوأمينك فإلينا يرجعون » .

ثم تلقت الأنظار الى أن شأن دعاة الحق مع المعارضين هو شأن المرسلين السابقين : أودوا فى سبيل الله وصبروا : « وما كان لرسول أن يأتى بأية الا بأذن الله فإذا جاء أمر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون » .

ثم تأخذ فى التذكير بنعم الله فيما خلق لهم من أنعام ينتفعون بالإنها ونسلها . وفيما هيا لهم من سفن تحملهم وتحمل أمتعتهم الى أماكن غير أماكنهم ، ثم توقظ فيهم ضمير الحق : « ويريك آياته فإى آيات الله تنكرون » .

ثم تذكر الآيات بسنة الله مع أسلافهم الذين انكروا الحق ، وكانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الأرض ، فما أغنى عنهم ما كانوا عليه

من قوة ، وما كانوا فيه من كثرة ، بل حاق بهم ما كانوا به يستهزون :
« فلما راوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ،
فلم يك ينفعهم إيمانهم لما راوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده
وخسر هنالك الكافرون » .-

وإذا كانت عوامل الفساد ، وعناصر الشر ، ومظاهر الطغيان ،
وسنة الله التي يأخذ بها الطغاة واحدة في كل العصور ، فليحذر
هؤلاء الطغاة ، الذين يسخرون ما أنعم الله به عليهم من علم ، وقوة ،
ومخترعات في استعباد خلق الله واستعمار أوطانهم ، فليحذروا
غضبته الله للحق ، وغيرته على عباده ، فذلك سنته ، ولن تجد
لسنته تبديلا .

سورة فصلت

الرّبيع الأول :

(*) سورة فصلت ، وتعرف بسورة السجدة ، هي السورة الثانية من سور سبع بدئت بحرفي « حم » وعرفت لذلك في القرآن الكريم باسم الحواميم ، وقد نزلت مرتبة متتالية ، ووضعت في المصحف كما نزلت ، وهي كلها تؤكد ان القرآن تنزيل من الله الجامع لصفات الجلال والجمال ، من العزة والحكمة والعلم والرحمة : « تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم » . « تنزيل من الرحمن الرحيم » . « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » .

القرآن وحى الله الى رسوله

ومعنى هذا ان القرآن ليس — كما يزعم المبطلون — من سحر الكهان ، ولا من أساطير الأولين ، ولا من مفتريات محمد ، ولا من تعليم بشر ، وانما هو وحى من الله أنزله على رسوله ، يقرب به أصول دينه من الايمان بوجدانيته ، والايمان بالوحى والرسالة ، والايمان بالبعث والجزاء ، وقد لفتت جميعها في سبيل ذلك الى آثار الله ونعمه في الأنفس والآفاق الدالة على قدرته النافذة ، وعلمه المحيط ، وحكمته البالغة ، كما أنذرت ورغبت . أنذرت بالعذاب الذى حل بالأمم التى كذبت رسلها ، وبالعذاب الذى أعد لهم يوم البعث والجزاء ، ورغبت بالحياة الطيبة فى الدنيا ، وبالنعيم الدائم فى الآخرة ، وكثيرا ما تضمنت تحليل نفسية المكذبين ، وصورت اعراضهم ، وجنابتهم على عدم استعدادهم لسباع الحق والحكمة تسليية للنبي صلى الله عليه وسلم ، وتهذبة لنفسه ، ونفوس أصحابه المجاهدين .

(*) الآيات من ١ الى نهاية الآية ٢٤ من سورة فصلت .

عناد

وها هي ذى سورة فصلت ، قد وضحت كثيرا من مواقفهم أمام الحق الذى يدعوهم اليه ، وكان من أبرز ما فصلته تصوير اعراضهم عنه ، وشدة نفورهم منه بقولهم : « قلوبنا فى اكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل انفسا عاملون » . يصفون انفسهم بأن قلوبهم فى اغطية محكمة فلا ينفذ اليها شماع من الدعوة ، وبأن آذانهم فيها وقر وثقل ، فهمى لا تحمل الى قلوبهم صوتا من الحق ، وبأن بينهم وبين الداعى — محمد عليه السلام — حجابا مانعا من التفاهم وتبادل الراى . والمعنى فى ذلك كله انهم طمسوا استعدادهم ، وطمسوا على انفسهم سبل الحق . وتصوير اعراضهم بهذا النحو يطابق تماما تصويره بقوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة » . وان اختلف القصد والهدف ، فالقصد فى آية الختم بانهم باهوائهم اعرضوا عن الحق ، وزين لهم الشيطان ذلك الاعراض حتى ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون . والقصد فى آية الاكنة ، انهم يحقرون شأن الدعوة ، ويعلنون انها ليست مما يستحق ان تفتح له القلوب أو تسمع له الآذان ، أو ترفع بينهم وبين صاحبها الحوائل .

أوامر الله نبيه

أمام هذا التصوير ، الذى يصورون به اعراضهم عن الدعوة ، يأمر الله نبيه أن يقرر لهم أولا مهمته، وأنه ليس الا بشرا يوحى اليه، فيبشروهم أن آمنوا ، وينذروهم أن أعرضوا ، وليس عليه شئ من تبعة اعراضهم وتكذيبهم : « قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه وويل للمشركين » .

وتأمره ثانيا : أن يقرر لهم أن اعراضهم عن دعوة الحق ليس الا كفرا بما شهدت بوحدانيته وقدرته ظواهر التكوين وأطواره فى الأرض وما أودع فيها من جبال واقوات ، وفى السماء وما نظمت عليه من كواكب ومصابيح : « قل ائنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين » . فان هم استعملوا عقولهم ، وآمنوا بما تنطق به هذه الظواهر فقد افلحوا وسعدوا ، وان هم أعرضوا : « فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » .

وتأخذ الآيات في بيان ما كان لهؤلاء من قوة واستكبار في الأرض، ومع ذلك لم تغن عنهم قوتهم ولا استكبارهم ، بل أخذهم الله بالعذاب الهون : « ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون » .

وتأمرة ثالثا : — بعد هذه المثلث الخالية — أن ينذرهم بما يصيرون اليه يوم القيامة ، يوم يشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . يوم ينكرون على جوارحهم — التي استخدموها في الشر والفساد — أن تشهد عليهم بما أفسدوا ، فتقرر لهم الجوارح أن الله ، الذي أنطق كل شيء بوحدانيته ، قد أنطقها بجرائعهم ، وأنهم كانوا بحالة من يظن أن الله تخفى عليه شئونه : « ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ، وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرادكم فأصبحتم من الخاسرين » .

وهكذا تكون نهايتهم ، اجزعوا واستغاثوا ، أم صبروا في ظل من رجاء العفو والمغفرة ؟ . . « فإن يصبروا فالنار مثوى لهم ، وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين » .

الربع الثاني :

أخوان السوء

(*) صور الربع السابق اعراض المشركين عن الدعوة . وبين مصيرهم يوم القيامة وما يلحقهم من الخزي والخسران . وفي هذا الربع ترشدهم الآيات الى أن هذا المصير السيئ لم يكن أثرا لطبعهم على الضلال ، ولا اكراها لهم من الله عليه ، وانما هو أثر لتأثرهم بأخوان السوء ، الذين زينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم من الأهواء والشهوات ، وعبرتنا في ذلك أن الشر كثيرا ما يصيب الانسان من وقوعه تحت تأثير البيئة الفاسدة المحيطة به . فعلى العقلاء أن أرادوا حياة طيبة أن يتخيروا الأصدقاء ، وأن يطهروا مجتمعهم من عناصر الشر ، وبذور الفتن ، حتى لا يكون لها سلطان على قلوبهم .

(*) الآيات من ٢٥ الى نهاية الآية ٦ من سورة فصلت .

وكما صور الربع الاول اعراض المشركين عن الدعوة في انفسهم بقولهم : « قلوبنا في اكنة » ، صور هذا الربع طريقتهم في محاولة صرف الناس عنها : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » . يحذرونهم عن الاستماع اليه ، والانصات له ، مخافة أن تصل الى قلوبهم حكمه السامية ، ويرسمون لهم أسلوب ذلك بما يخفى عليهم فضله : « والغوا فيه » : أطلقوا عليه السكتكم ، أشيعوا السخط عليه ، انشروا عنه الأباطيل .. وهذا شأن عرفه المضللون طريقا لاختفاء الحق في كل زمان يغمرونه بالأراجيف والمفتريات ، ويتتبعون أهله بالمقاطعة والتهريج أينما حلوا ، وأينما ارتحلوا . والله يتوعد المرجفين الذين يعملون على اخفاء الحق بالعذاب الشديد ، وسيكشف للتابعين افساد المتبوعين لهم : « ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والانس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين » .

المؤمنون في رعاية ربهم

ثم تشيد الآيات أزر المؤمنين وتؤكد لهم أنهم — بإيمانهم واخلاصهم في الدعوة ، واستقامتهم على حدودها — في حماية الله ورعايته ، يقوى قلوبهم ويتردد عنهم بواعث الخوف والحزن ، ويمنحهم كل ما يطمئنهم ، ويبشّرهم بالفوز والفلاح : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون » ثم ترشدهم الى أنهم بدعوتهم الى الله في منزلة لا يوجد في حكم الله وقضائه استمى منها : « ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال اننى من المسلمين » . كما ترشدهم الى ما يحفظ عليهم تلك المنزلة من تحلية النفس بالصبر والاحتمال ، ومقابلة السيئة بالحسنة ، وتطهيرها من نزعات الشيطان التي يزل بها المؤمن عن مقتضى الايمان وتمنعه منزلة السمو بالدعوة الى الله : « واما ينزغك من الشيطان نزع فاستعذ بالله انه هو السميع العليم » .

بعض دلائل الوجدانية

ثم تعود الآيات فتلفت الانظار الى بعض دلائل الوجدانية في علوى

العالم وسفليه ، وان كل ما في الكون خاضع لقدرته وسلطانه ، فلا يصح السجود لغيره مهما عظم : « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن » وترشد الى أن العدول عن مقتضى هذه الأدلة انحراف عن الحق ، والحاد فى آيات الله ، وتتوعد هؤلاء الملحدون باطلاع الله على سرائرهم ، والعوامل التى دفعتهم الى هذا الإلحاد : « ان الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا ، أفمن يلقى فى النار خير ، أم من يأتى آمنا يوم القيامة ، اعملوا ما شئتم انه بما تعملون بصير » .

تسليية

ثم تنتقل الآيات الى تهوين الأمر على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفى سبيل ذلك ترشده الى أن موقف قومه منه هو موقف الأمم الماضية من اخوانه السابقين ، وما عليه الا أن يصبر كما صبروا : « ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك أن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم » فلا تسمع لمقترحاتهم ، ولا تهتم بكيدهم ، فهم قوم لا يثبتون على حال ، ولا يرضيهم الا الشهوات والأهواء ، ولقد أنزلنا عليهم قرآنا عربيا بلسانهم ، فيه التفصيل والبيان ، والحجة والبرهان ، فاعرضوا عنه وقالوا فى آذاننا وقر : « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر ، وهو عليهم عصى ، أولئك ينادون من مكان بعيد » .

ثم تختتم الآيات بتقرير مبدأ الحكمة والعدالة فى المؤاخذه بالأعمال صالحتها وسيئها ، وان نفسا لا تتحمل وزر أخرى : « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد » .

الربع الثالث :

(*) ومن أساليب القرآن فى الدعوة التهديد والانذار بأهوال الساعة وشدة العذاب فى الآخرة ، وقد جاء ذلك فى عبارات مختلفة ، وعلى ألوان وأنحاء متعددة ، تصف الآيات مقدمات الساعة تارة ،

(*) الآيات من ٤٧ الى آخر السورة .

وتصف الحشر تارة أخرى ، وتتحدث عن العذاب الثالثة ، وعن احوال
المكذبين مع شركائهم أو مع الحق رابعة ، وهكذا الى آخر ما نراه
في القرآن الكريم ، ومما جاء في ذلك من سورتنا « ولعذاب الآخرة
أخزى وهم لا ينصرون » . « ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم
يوزعون » . « فان يصبروا فالنار مثوى لهم وان يستعجبوا فما هم
من المعتبين » . « أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمنا يوم
القيامة ؟ » .

وكان القوم يقابلون الحديث عن الساعة ، وعن ذاب الآخرة ،
تارة بالانكار والتعجب من الأخبار به ويقولون : « ما هي الا حياتنا
الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر » ، « من يحيى العظام وهي
رميم » . وتارة بما يفيد انهم شاكون متحيرين : « ما ندرى
ما الساعة ، ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين » . وكثيرا ما كانوا
يسألون عن وقتها ، ويستعجلون عذابها ، تهكما واستهزاء ، وكان
القرآن في كل هذه المواقف يجيبهم بالحجة الداحضة التي لا تدع
مجالا للانكار ولا للشك ، وكان — في سؤالهم عن الوقت — يرد
عليهم بأن علمه بها استأثر الله به ، ولا يطلع عليه أحد من خلقه ،
ومن ذلك ما جاء في هذا الرّبع : « اليه يرد علم الساعة » ، والعبارة
واضحة في أن علم الساعة لا يعلمه أحد سواه . وقد ضمت الآية
اليه بعض الأحداث الكونية التي تأخذ حكمه ، وهم بأنفسهم يعترفون
بأنه لا يعلمها أحد سواه : « وما تخرج من ثمرات من أكمامها
(أوعيتها) وما تحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمه » . وقد جاء ذلك
المعنى في كثير من الآيات : « ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم
صادقين » . « قل انمسا العلم عند الله وانمسا أنا نذير مبين » .
« يسألونك عن الساعة ايان مرساها ، قل انما علمها عند ربى » .

الحكمة في اخفاء الساعة

والحكمة في اخفاء الساعة هي الحكمة في اخفاء الآجال ، هي
الحكمة في اخفاء الأحداث والنوازل ، فان الانسان لو علم بها
لخارت قواه ، وانسد أمامه باب الأمل ، وحيل بينه وبين العمل ،
وصار في حالة تشبه القهر والالقاء . وبعد ان أوضحت لهم الآيات
شأن الساعة ، أخذت بهم الى التذكير بما ينفعهم ، فذكرت لهم يوم

ينادون : أين الشركاء الذين كانوا يتخذونهم أولياء من دون الله ، وما يجيبون به عن هذا السؤال ، يتبرعون منهم ، ويسجلون على أنفسهم أن أحدا منهم لم يشهد لهؤلاء بالعبودية ، ولا بالولاية : « وذل عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص » ، وهذا نوع من الحيرة والتردد ، يلزمهم في الآخرة ، كما كان يلزمهم في الدنيا ..

الإيمان مبعث الشكر والصبر

ومن هنا تذكر الآيات أن الإنسان الذي لم يعتصم بالإيمان مبعث الشكر على النعماء ، ومبعث الصبر على الضراء ، تتردد مواقف في الخير والشر والنعمة والنقمة بين الفرح والبطر ، والهلع والجزع ، بين الالتجاء إلى ربه في وقت الشدة ، ونسيانه وقت الرخاء ، بين الرضا عند الإكرام والانععام ، واليأس والقنوط عند التقدير والابتلاء ، بين دعاء ربه واستغاثته ، والأعراض عنه صلحا وكبرا ، وفي تلك الأحوال النفسية ، التي تحلها البشرية الحيوانية ، تقول سورتنا : « لا يسأم الإنسان من دعاء الخير ، وإن مسه الشر فيئوس قنوط ، ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رجعت إلى ربي أن لى عنده للحسنى » . « وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض » . وكثيرا ما أكد القرآن هذه النفسية التي يحملها القلب الذي لم يعتصم بالإيمان بالله : « فلما نجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق » . « ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني ، إنه لفرح غفور » .

أما العلاج فهو ما جاء في قوله تعالى : « إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » . وفي قوله : « أن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا إلا المصلين » .

ثم تختتم السورة بأن انكارهم للحق قبل النظر والتفكير — وهو على الأقل يحتمل أن يكون من عند الله — ليس في نظر العقلاء إلا

ضلالا وفسادا ليس بعدهما من ضلال ولا فساد : « أرايتم أن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد ؟ » .

وبأن الأدلة على حقية القرآن ، وأنه من عند الله ، لا تقف عند هذا الحد غيبا تجلى لهم من أسرار الكون وخصائصه ، وعجائب الله وتصاريفه ، بل مستتصحا ، وسبرونها فترة بعد فترة ، وطورا بعد طور ، كلما تقدمت مدارك الإنسان وخاض غمار الكون فعرّف خواصه ، وسنن الله فيه ، في الأفاق والأنفس : « سنريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » ، صنع ربك الشهيد على كل شيء وهم في مرية من لقائه ، انه بكل شيء محيط .

سورة الشورى

الربع الأول :

(*) هذه هي السورة الثالثة من السور السبع ، التي عرفت في القرآن الكريم باسم الحواميم ، وهي تشارك زميلاتها في الهدف والمنهاج ، فهي تؤكد أن القرآن ما هو الا تنزيل من الله الجامع لصفات الجلال والجمال ، والذي خضعت له الكائنات « الله العزيز الحكيم » ، « وهو العلي العظيم » وانه ليس الا وحيا أوحى به الله الى رسوله ، لينذر الأتوام الذين فسدت فطرهم ، واتخذوا من دون الله أولياء يعبدونهم من دونه ، وهو الولي الذي لا ولي سواه : « وهو يحيى الموتى وهو على كل شيء قدير » .

وارتدت السورة مع هذا كله الى أن وحى الله الى عباده حقيقة ثابتة ، أخذت حظها من الوجود بالنسبة لمحمد ، وبالنسبة لآخوانه السابقين ، فليس الوحي شأننا خاصا به ، ولا هو بدعا من الرسل : « كذلك يوحى اليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » « وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها » .

الوحي روح

ثم تصف الوحي بأنه روح يحيى القلوب الميتة ، ويهdy الى صراط مستقيم ، وانه فضل من الله على محمد ، وأن حالة محمد قاطعة في أن القرآن ليس من عنده وإنما هو من عند الله : « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدي الى صراط مستقيم » .

ثم تقدر السورة أن الوحي من لوازم حكمة الله ، ومتناول قدرته التي ظهرت آثارها في الخلق والرزق : « فاطر السموات والأرض » « له مقاليد السموات والأرض » .

(*) الآيات من ١ الى آخر الآية ٢٦ من سورة الشورى *

وحدة دين الله

ثم تبرز السورة حقيقة ضل فيها الناس بغيا وعدوانا ، فذهب فريق الى انكارها ، وفريق الى الايمان بها لبعض الرسل دون بعض . تلك الحقيقة هي أن الدين الذي أوحى الله به الى محمد هو الدين الذي أوحى به الى نوح ، والى ابراهيم وموسى وعيسى ، ووصاهم باقامته ودعوة الناس اليه ، وعدم التفرق فيه ، وقامت فيه حجة كل رسول على قومه ، ولكن الناس كبر عليهم ، حقدا وحسدا ، أن يؤمنوا بتلك الحقيقة المتحدة ، فأنكروها ، أو غرقوها ، وزعموا أن الأديان متعددة بتعدد الرسل ، أن لكل دين أصولا واتباعا ، وأخذوا باسم الدين يتحاربون ويتسافكون ، والدين منهم برىء ، والله من ورائهم محيط ، فدين الله واحد ، وانكاره من أحد الأنبياء انكار له من جميعهم . .

وقد عرض القرآن كثيرا في مكة ومدنيه لتقرير الوحدة الدينية ، وقرر الايمان بكل الرسل وبكل الكتب ، وجاءت في سورتنا « الشورى » واضحة جليلة : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه » .

رسم منهاج الدعوة

ثم تتجه السورة بعد تقرير هذه الحقيقة الى الرسول عليه السلام ، واضع اللبنة الأخيرة من هذا البناء الالهي ، المكمل لشرائع الله ، على حسب استعداد خلق الله . تتجه اليه عليه الصلاة والسلام ، فترسم له منهاجا للدعوة غاية في القوة ، منهاجا يزيد المؤمنين ايمانا على ايمان ، ويزيد المعاندين المغرقين رجسا على رجس ، منهاجا يتكون من عشر فقرات كانت عدته في الهجرة ، وعدته في الدعوة ، وعدته في الوصول الى الغاية : « فلذلك فادع ، واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم . لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا ، واليه المصير » .

انتصار الحق

ثم تطمئن السورة بعد ذلك دعاء الحق ، الذين يلتزمون هذا المنهاج ، بأن معارضة الجاحدين لتلك الحقيقة ، المشوهين لها — بعد أن أخذت الى القلوب الحية سبيلها — معارضة ضائعة فاشلة: « والذين يحتاجون في الله من بعد ما استجيب له ، حجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد » .

فالحق متى أخذ مكانا ما ، سرت روحه ، وانتشر نوره ، وسار بقوته حتى يعمل عمله في النفوس دون حرب ولا نضال وهكذا انتشر الاسلام عن طريق السياحة ، وعن طريق التجارة ، وعن طريق الخبر ، دون حرب ولا نضال ، ولا يزال يغزو القلوب ، وتتفتح له الافئدة دون اكراه أو الجاء ..

ثم أخذت الآيات في تبكيتهم على انكار البعث ، واتخاذ غير الله أولياء مع ظهور الآيات والدلائل ، وتفتح لهم باب الرجاء في العفو والمغفرة إذا هم أقبلوا عليه ، وخلعوا أنفسهم مما هم فيه ، وآمنوا بما أنزل الله : « وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ، ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله ، والكافرون لهم عذاب شديد » ..

الربع الثاني :

المؤمنون لا تفتنهم الدنيا

(*) جاء في الربع السابق ، ان الله يجيب حاجة الذين آمنوا ويزيدهم من فضله وان للكافرين عذابا شديدا ، ومع ذلك فقد كان الكافرون في بسطة من الرزق وسعة من العيش ، والمؤمنون على عكس ذلك ، وقد يكون هذا هو المشاهد في جل الأزمان أن لم يكن في كلها ..

وفي هذا الربع تكشف الآيات عن شأن في الإنسان ، يرجع هذا الشأن الى أنه اذا كثر ماله وجاهه شغل به عن مقومات نفسه

(*) الآيات من ٢٧ الى آخر السورة .

وروحه ، وكثيرا ما يندفع الى البطر والطغيان ، ويتعرض بـ
عاقبة الطغاة من الحرمان المطلق ، والعذاب الاليم ، فـ
الحكمة الوقوف بالمؤمن — فيها يجر الى الطغيان — عند حد
والاعتدال ، وهو فيما يقوم بالحاجة ، ويحقق لكل الذى
الى الطغيان .

حكمة فى بسط الرزق وقبضه

ومن هنا نرى ان المؤمنين ، فى الاعم الأغلب ، أقل من غـ
متعة الحياة الدنيا وزينتها ، رحمة بهم وحرصا عليهم و
الذين جحدت قلوبهم ، واستولت الدنيا على نفوسهم :
أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم
من فضة ، ومعارج عليها يظهرون ، وليبيوتهم أبوابا وسرر
يتكئون ، وزخرفا ، وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا
عند ربك للمتقين » .

بهذا طمأن الله المؤمنين ، قرر انه لو بسط الرزق لهم ، :
لغيرهم ، لماوا الى الشهوات وانحرفوا عن الطريق المسـ
وهو لذلك يمد اليهم يده بالقدر الذى يعلم انه يقوم بحاجتهم
ولا يطفئهم ، وليس ذلك عجزا عن أن يمنحهم كما يمنح غـ
ولا بخلا عليهم بما لم ييخل به على غيرهم فهو القادر على
لغير حد ، وهو الذى بيده أسباب الرزق وهو العرف
بالمؤمنين ، فهو الذى ينزل الغيث ، وهو الذى خلق السمـ
والأرض وسخرها للإنسان ، وبث فيهما من كل دابة ، وهم
وفقههم الى صنع السفن واجرائها فى البحار ، وكل ذلك لـ
متاع الحياة الدنيا ، لا يجب أن يقف عنده للمؤمنين . وانـ
يحبهم هو المتاع الباقى الذى لا ينفد ، والذى لا يحصا
الا من جمع خلال الخير ، ولم يربط قلبه بالمتاع الزائل ، بل
همه الايمان بربه ، والتوكل عليه ، وتطهير باطنه وظاهره .
والفواحش ، وانتباهه النفسى لمولاه ، وأداء حقه بالصلاة الخـ
وحق اخوانه الفقراء بالزكاة المطهرة . ثم عرف لنفسـ
المؤمنين ، ولم يخضع لبغى ولا عدوان ، وانما انتصر لنفسه
اسراف ولا طغيان : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » . « انما
على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق » .

أجملت الآيات بهذا صفات المرشحين عند الله ، وهى كلها صفات تقتصل بتقوية الجانب المادى عن طريق القوة فى الجانب الروحى، والذى يجدر التنبيه اليه أن الله ذكر بين تلك الصفات مبدءاً « الشورى » . وأشار الى أنه شأن المؤمنين : « والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة ، وأمرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون » .

مكانة الشورى فى الاسلام

وضعه بين اقامة الصلاة والانفاق من الرزق فى سبيل الله ، وسميت السورة بسورة « الشورى » . وكان فى هذا وذلك ابلغ دلالة على مكانة الشورى فى شريعة القرآن ، وحسبها انها عنصر من عناصر الشخصية الايمانية لحقة ، نظمت فى عقد حياته طهارة القلب بالايمان والتوكل ، وطهارة الجوارح من الاثم والفواحش ، ومراقبة الله باقامة الصلاة والانفاق فى سبيله ، والانتصار على البغى والعدوان ..

وبعنصر الشورى قضى الاسلام على عدو الانسانية الفاضلة ، وهو الاستبداد بالرأى واحتكار التشريع والتصريف والادارة ، وسلب أهل الرأى والكفايات حق ابداء رأيهم ، وآثار كفاياتهم . والقرآن لا يريد من الشورى — حين يضعها هذا الوضع — هذه الصورة الهزيلة التى يتواضع عليها أرباب البغى والاحتكار ، ويتخذونها ستاراً للطغيان ، وسلب الحقوق ، وانما يريد لها حقيقة نقية بريئة مما يكثر صفوها ، ويفقد خيرها ..

وبعد أن تعرض الآيات شيئاً من خلال المجادلين فى آيات الله على النحو الذى عهد كثيراً فى القرآن عامة ، وفى هذه السور السبع خاصة ، توجه خطاب الدعوة والتحذير الى الناس جميعاً : « استجبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير » وتقرر للنبي صلى الله عليه وسلم ما به يهدأ روعه ، ويطمئن قلبه ، تقرر له مهمته ، وأنه ليس عليه شيء من تبعة كفر الكافرين ، واعراض المعرضين . « فان اعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً ان عليك الا البلاغ » .

ثم تؤكد له أخيراً ان الله قد جعل له القرآن نورا يهتدى به الى صراط مستقيم . « صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض الا الى الله تصير الأمور » .

سورة الملك

سورة الملك هي أول سورة من سور الجزء التاسع والعشرين من القرآن الكريم ، والجزء كله من القسم المكي الذي نزل في أول أطوار الدعوة تقريرا لأصولها الثلاثة : عقيدة التوحيد ، وعقيدة الرسالة المحمدية ، وعقيدة البعث والجزاء .

والله ذو الفضل العظيم

في القرآن الكريم سورتان افتتحهما الله بتمجيده وتعظيمه ، وعبر عن ذلك بكلمة « تبارك » الدالة على الاختصاص بمعاني السمو المطلق في الذات والصفات وبمعاني الكثرة والزيادة في الفضل والاحسان ، ولفضل الله على عباده مظهران :

هذا الكون الذي خلقه وأبدعه وأودع فيه من الأسرار والمنافع ما تقف العقول دون اكتناحه والاحاطة به .

وهذا الكتاب المثلو الذي ختم الله به رسالاته وأنزله على عبده محمد صلى الله عليه وسلم ، يوجه به العقل البشري الى معرفة الحق في الوجود ، والى خوض غمار الكون والتنقيب عن أسرارهِ ومنافعهِ .

فهما كتابان :

كتاب صامت ينظر فيه الانسان فيعرف ويؤمن وينتفع ..

وكتاب مثلو يقرؤه ويتدبره فينبهه الى ما في كتاب الكون من آيات وعجائب ومستودعات هي للانسان مسخرات .

وبهذين الكتابين ، الصامت والمثلو ، تجلت آثار ربوبيته للعالم ، مادية حسية ، وروحية عقلية ، وقد جاءت أول كلمة في الكتاب المثلو « الحمد لله رب العالمين » تعبيرا صادقا عن هذه الحقيقة .

وبهذين الكتابين كمل انعام الله على الانسان ، وعظم فضله واتسع احسانه ، وبهما هبىء له أن يصل الى كماله المادى عن طريق الانتفاع بما سخر له في كتاب الكون ، والى كماله الروحى عن طريق ما ارشد اليه كتاب الوحي في العقيدة والسلوك .

وقد انزل - في لفت الأنظار الى الكتاب المطو ، وتقرير انه
 الفاضل بين الحق والباطل - سورة الفرقان على عبده ليكون للعالمين
 نذيرا " . وانزل - في لفت الأنظار الى الكتاب الكونى مظهر الربوبية
 المادية - سورة الملك بتلك الكلمة نفسها « تبارك الذى بيده الملك
 وهو على كل شئ قدير » . ثم ساقى السورة جملة من مظاهر
 سلطانه وقدرته وتفرد به بالملك والتدبير فى الانسان ، وفيما يحيط
 به من عالم علوى وسفلى ، فذكرت ان الموت والحياة يتواردان
 على الانسان ليظهر بهما اتجاهه ويعرف سلوكه ، وهل هو من
 الشاكرين لنعمة الحياة ، المقدرين لرهبة الموت ، او هو من
 الكافرين بنعمة الحياة ، اللاهين عن عاقبة الموت « ليلوكم ايكم
 احسن عملا » وذكرت فى العالم العلوى ، انه خلق سبع سموات هى
 مدارات النجوم السيارة التى كانت معروفة للعالم اذ ذاك ، يعلو
 بعضها بعضا ، هى غاية فى الاحكام والاعتقان ، لا يرى فيها شئ
 من الخلل مهما تكرر النظر اليها ، وتردد البحث فيها ، كيف وهى
 خائصة لناموس الهى ثابت ، لا تشذ ذرة فيها عن سلطانه الا
 اذا شاء واضعه ومهسكه . .

نظام محكم

تم ارشدت الى ما فى هذا النظام من وجوه المصالح التى
 تعود على العباد بالنفع العام ، فهى زينة بمصايبها ، تنمى
 النفس بجمالها ، وهى منار يهتدى به الانسان فى ظلمات البر
 والبحر ، وهى مآذيق حق يرمى بها الشياطين ، الذين يعملون
 جهدهم على اخراج الناس من نور الايمان الى ظلمة الكفر « الذى
 خلق سبع سموات طباقا ، ما ترى فى خلق الرحمن من تفوت » .
 « ولقد زيننا السماء الدنيا بمصايب وجعلناها رجوما للشياطين ،
 واعندنا لهم عذاب العير » .

ثم تصف السورة هذه النار التى اعدت للمفسدين بجملة
 اوصاف : تدل على شدتها ، وتفيظها منهم وحقدها عليهم ، كما
 تدل على تأنيب خزنتها لهم ، وتهكمهم بهم ، وعلى اعتراهم
 انفسهم بذنوبهم ، واهمال عقولهم ، وزيادة فى فجيعتهم ترشد
 السورة بازاء ذلك الى فضل الله على المؤمنين ، واکرامه اياهم ،

واقرا في ذلك : « اذا القوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تقو .. »
الى آخر الآيات . فتذكر من مظاهر سلطانه ونعمته في المعالم
السفلى تهينة الارض للسير والزراعة ، والتقلب في جميع أرجائها ،
تنذرهم بالقدرة على تغيير تلك المعالم الارضية بالخسف والزلازل ،
وبإرسال الرياح التى تقذفهم بالأحجار ، فتكدر عليهم صفو
الحياة ..

* * *

ثم تلفت نظرهم الى آية فذة فيها يرون من الطير ، وهو يحلق
فى الجو باسطا أجنحته ، ثم يقبضها وليس لها من حافظ سوى
قدرة الله المنبئة عن رحبته . « مايمسكهن الا الرحمن » . ثم ينكر
عليهم ، أن نخطر فى نفوسهم بعد تلك الدلائل الواضحة ، أن لهم
من دون الله من ينقذهم أو يرزقهم : « امن هذا الذى يرزقكم ان
أمسك رزقه ؟ .. » ثم يحاكمهم الى العقل والضمير : « أمن يمشى
مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سويا على صراط مستقيم ؟ .. »

نعم تستوجب الشكر

ثم بعد أن تمتن عليهم بنعمة الخلق ونعمة السمع والبصر
والأبصار ، تلك النعم التى كفروا بها وطمسوها على انفسهم ، فلم
يدركوا بها حقا ، ولم يستعملوها فى أهدائها ، تختم السورة بذكر
المبدأ والمعاد ، ذلكم المعاد الذى يستبعدونه ويستتهزون به كلما
ذكر لهم ، ويقولون : « متى هذا الوعد ان كنتم صادقين ؟ .. »
ونلقن النبى صلى الله عليه وسلم حجته عليهم : « قل انما العلم
عند الله ، وانما انا نذير مبين » فلا تسالوا عن وقته فانه لا علم
لى به ، وليس علمه من مهمتى ، وانه واقع بكم لا محالة ستروته
بأعينكم : « فلما رآوه زلقة (قريبا) سيئت وجوه الذين كفروا
وقيل هذا الذى كنتم به تدعون .. »

وأخيرا تقرر الا طريق للنجاة سوى الايمان بالله والتوكل عليه ،
فهو صاحب المنع والعطاء : « قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا ،
فستعلمون من هو فى ضلال مبين . قل أرايتم ان أصبح ماؤكم
(مادة حياسيم) غورا (غائرا) فمن يأتاكم بماء معين ؟ .. »

سورة القلم

(*) كلما كان الناس غرقى في الشهوات والاهواء ، مسلمين انفسهم للأوهام والباطيل كانت دعوة الحق في نظرهم هى دعوة الباطل ، ودعوة الخير هى دعوة الشر ، ودعوة الجنون . ومن هنا كان أول ما قوبل به النبى صلى الله عليه وسلم حينما دعا قومه الى توحيد الخالق ، ونبذ ما هم عليه من الفسوق وعبادة الاصنام : « انك لجنون » والجنون عند ارباب الشهوات هو التزام جادة الحق والخضوع لواضح البرهان . والعقل عندهم هو مسأيرتهم فيما نشئوا عليه وورثوه من الاهواء والخرافات .

وقد نزلت سورة القلم في فجر الوحى ، تكشف الغطاء عن امينهم . وتبصرهم بحقيقة محمد وما يدعوهم اليه ، فلفتت الانظار الى أن الذى اجتباه ربه وكرمه وحباه بنعمة الحق والذكاء والطفنة ، ثم بنعمة النبوة والرسالة ، ثم بعظم الاجز على القيام بمهمته ، ثم كمله بالخلق الذى به يشهدون وله يعرفون ، محال أن يكون على ما يصفون .

ثم لم تشأ أن ترسل تلك الحجة المقنعة بنفسها ارسالا ، بل أبرزتها في اطار من القسم بأساس دعوته وهو العلم القاضى على جهالة النفوس وطغيانها ، وذكرته بأهم أدواته من القلم والكتابة وبذلك رجعت به الى أول ما أوحى الله به اليه : « اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » . ثم طمأننت الرسول بأنه سيرى بعينه ، ويرون هم أيضا بأعينهم أى الفريقين قد زل عقله وحاد عن طريق الحكمة ، ووقع في ضلال الجنون والفتنة ، وبذلك كله تبدأ السورة : « ن . والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون » .

ثم تعود السورة وتؤكد للنبى في آخرها ان اتهامهم إياها بالجنون لم يكن الا اثرا آثار حقدهم عليه حينما سمعوا منه تلك الدعوة

التي ستزلزل سلطانهم وتقضى على عزتهم التي تخيلوها ، وقد سبق هذا المعنى في أسلوب يصور شدة حنقهم عليه : « وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون انه لمجنون » . ثم تنبه الى حقيقة القرآن وما يدعو اليه بها يدل على ان حقيقته غاية في الوضوح والظهور ، وانه راسخ في النفوس والفطر ، وما الدعوة الا تذكير وايضا : « وما هو الا ذكر للعالمين » . وبذلك تكامل آخر السورة مع اولها في رد تلك الفرية واقتلاع جذورها بالواقع الصحيح .

تحذير

وتتجه السورة فيما بين ذلك الى تحذيره صلى الله عليه وسلم من الميل اليهم واطاعتهم فيما يريدونه عليه . كانوا يسامونه بالمال والسلطان ان هو ترك دعوته ، فحذرته اطاعتهم على وجه عام ، ثم نفرتهم من اطاعتهم بخلاف سيئة عرف بها بعض زعمائهم ، وتابها طبيعته النقية الطاهرة : « فلا تطع المكذبين ودوا لو تدهن فيدهنون ، ولا تطع كل حلاف ، مهين ، همار ، مشاء بنميم ، مناع للخير ، معتد ، أثيم ، عتل ، بعد ذلك زنييم » . ثم تنبه الايات الى ان سبب كفرهم هو طغيانهم بالمال والبنين ، واعتمادهم عليها ، واغترارهم بها في عزتهم ، ثم تؤكد سوء عاقبتهم . وان الله سيظهر بهم ، ويفضح أمرهم ، ويلصق بهم علامة الذل والصفار بعلو سلطان الحق ، وادالة سلطانهم : « سنسبه على الخرطوم » .

ابتلاء بالمال والبنين

وتبين لهم ان الأموال والبنين لم تكن الا اختبارا يتبين منه صلاح النفوس وفسادها ، وفي سبيل ذلك تذكر لهم قصة اصحاب البستان « الجنة » الذين ضنوا بحق الفقراء فيها ، قالوا نحن به احق واولى ، وانتقوا على جنيتها في وقت مبكر غير الوقت الذي كان يعرفه الفقراء : « ولا يستثنون » .

وبعد ان بيتوا النية على ذلك . وذهبوا الى جناتهم ، وجدوها قد احترقت وسقطت ثمارها ، فوقعوا في حيرة حتى ظنوا انهم ضلوا طريقها ثم نبين لهم الامر ، وانها هي ولكن قد طاف عليها طائف من

ربك وهم ناثرون ، فوقعوا في اللوم وأدركوا انهم بنيتهم كانوا ظالمين : « ما قبل بعضهم على بعض يتلاومون ، قالوا يا ويلنا انا كنا طاعين » . فعادوا الى ربهم ورجوا أن يغفر لهم ، وأن يبدلهم خيرا من جنتهم : « انا الى ربنا راغبون » . ثم تذييل القصة بأن سنة الله في هؤلاء المستكبرين ، وفي كل أرباب النعم هي سنته في أصحاب الجنة : ان تداركوا خطاهم غفر الله لهم ، وان استمروا على طغيانهم نهذا جزاؤهم في الدنيا : « ولعذاب الآخرة اكبر لو كانوا يعلمون » .

زعم باطل

ومن عادة المفتونين بأموالهم زعمهم أن لأنفسهم مكانة عند الله أعظم من مكانة الفقراء الذين يهرعون الى استجابة الدعوة فتأخذ السورة في تبكيهم على هذا الزعم ، وتبين لهم أنه زعم ليس لهم فيه مستند ، فلا الكتب نصت عليه ، ولا العقل يقضى به ولم يأخذوا به عند الله حكا ولا عهدا ، واذن فليس لهم من دونه أنصار يحفظونهم من أمره ، يوم يشتد الكرب ، ويكشف عن ساق «ويدعون الى السجود فلا يستطيعون ، خاشعة أبصارهم ، ترهقهم ذلة ، وقد كنوا يدعون الى السجود وهم سالون » . ثم تخفف السورة وحالة تكذيبهم على النبي ، تطلب منه أن يفوض أمرهم اليه سبحانه ونرشده الى أن الانعام عليهم لم يكن لمكانتهم عنده ، وانما كان املاء واستدراجا ، ثم تأمره بالصبر على كيدهم وتحذره الانفعال النفسى مخافة أن يقع فيها وقع فيه أخوه يونس ، حينما غضب من قومه وتركهم فابتلاه الله بابتلاع الحوت اياه وفي ذلك تقول السورة :

« افنعمل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون » .
« فذرني ومن يكذب بهذا الحديث ، سنستدرجهم من حيث لا يعلمون »
« فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكلول » .

عظة

اما بعد :

فجدير بأرباب الشهوات والاهواء ، الحائدين على الحق وأهله

أن يطهروا قلوبهم من بواعث الحقد ومكيدة الحق ، احتفاظا
بإنسانيتهم وحرصا على مزاياهم التي كرمهم الله بها .

وجدير بأرباب الأموال الذين يضمنون بحق الفقراء فيها وقدانهم
الله بها عليهم — أن يتأملوا قصة أصحاب الجنة فيخشوا غيره الله
على عباده الفقراء ..

وجدير بأرباب الدعوة الى الحق ، الذين يعملون على الخير
والصلاح ، الا يقتربوا من المبطلين أرباب الفساد والخلق السيء
الذى يمنعون به الخير ويفسدون به ما بين الناس من روابط
المحبة والاخاء ، عليهم أن ينشئوا أبناءهم على خلال الخير
والفضيلة . وجدير بهم أن يتذرعوا في كل ذلك بالصبر والإلتجاء
الى الله حتى يسعدوا أنفسهم ومجتمعهم بدعوة الخير والفضيلة ،
ويركزوا الحق الذى رضىه الله لعباده وبينه في كتبه ، وكلف
رسله بتبليغه والدعوة اليه . ونسال الله التوفيق والهداية ..

سورة الحاقة

(*) وجهت سورة الملك انظار القوم الى بعض ما في الكون من دلائل الوجدانية وآيات الحكمة والعلم والقدرة ، وكشفت سورة القلم عن نعمة الله على محمد ، وعن بطلان التهمة التي وجهها اليه القوم حقدا وغيظا ، وهي تهمة الجنون ، وحذرته ان يلين لهم ، او أن يسارع اليه الغضب فيكون كأخيه يونس بن متى ، وضربت لهم الأمثال في عاقبة الاغترار بالاموال والبنين ، ولم يفنتها أن تعرض للتهديدات بالبعث ، ودار الجزاء .

ثم تجيء سورة الحاقة لتضع الحد الفاصل بين زعمهم وبين دعوة الرسول فيما يختص بالقيامة ، فتبدأ بتفخيمها وتعظيم شأنها ، وانها بلغت في عظم الشأن أن يقف الانسان امام انبائها واهوالها مبهوتا. متسائلا ، بل بلغت مبلغا يتسامى عن الادراك والاحاطة « الحاقة » ما هي ؟ وما ادراك ما هي ؟ استنهام يملأ النفس روعة ورعبا ، ويقف بها على شاطئ بحر متلاطم الأمواج ، لا يدرك البصر أطرافه ، فيقف حائرا مضطربا لا يملك سوى أن يقول ما هذا ؟ ما هذا ؟

معنى الحاقة

وكلمة « الحاقة » كلمات القارة والواقعة ، والطامة ، والصاخبة ، اعلام بالعلبة على القيامة ، ولكل منها دلالة على معنى من معانيها ، وأثر من آثارها . فهي حاقة في ذاتها ، وهي حاقة لانبائها ، وهي بمقوماتها وأحداثها تقرر القلوب وتصك الاسماع ، وهي التي بعد هذا كله كان انكار الأمم السابقة لها سببا في فسادهم وطفيتهم ، وفي التفتك بهم على وجه لا تزال آثاره وأخباره تنبئ بما أصابهم من الهلاك والدمار ، فهذه ثمود ، وتلك عاد ، وهذا فرعون ومن قبله من الطغاة ، وهذه « المؤتفكات » القرى التي

(*) سورة الحاقة .

أوتفكت وانتقلت على أهلها بفعلتهم الشنعاء : ترى قوم لوط . هؤلاء جميعاً أنكروها ولم يعملوا على حسابها، فاندفعوا في طغيانهم وأثمهم ، فأتى على الكل ما طوى صفحاتهم من الوجود ، وجعلهم أثراً من بعد عين « فإما ثمود فاهلكوا بالطاغية ، وإما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية » .

وقد ذكرت السورة بالطوفان الذى أخذ قوم نوح ، مصرحة بجانب النعمة فيه على العرب وهى حمل أصولهم فى السفينة « أنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية » . ومعنى هذا أنه كان جديراً بالعرب — وهم أبناء الذين سلموا من الطوفان — أن يذكروا تلك النعمة ، ويدعوا العناد والتكذيب : « لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية » .

انذار

وبعد أن فحمت السورة من شأن الساعة ما فحمت ، وقدمت للقوم النذر التاريخية التى أصابت المكذبين بها، أخذت تصور أحداثها، من مقدماتها الى نهايتها ، فصورت بالنفخ فى الصور انحلال النواميس التى تمسك العالم علويه وسفليه « وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهى يومئذ واهية » . ثم تصور عظمة السلطان الإلهى بمثل ما يعهده الناس فى سلطان القادرين الأقوياء : « والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » وحسبنا أن نؤمن بما تدل عليه العبارة من عظم السلطان على حسب ما يعهده الناس فى دنياهم . أما كيف تقف الملائكة على الأرجاء ، أو كيف يحمل العرش ، أو من هؤلاء الثمانية ؟ أو ما حكمة هذا العدد ؟ فهذا كله مما لا ينبغى أن نخوض فى حقيقته ، إنما هو روعة القضاء الإلهى ، والمحكمة القاهرة ..

جزاء المؤمن

ثم تشير الآيات الى العرض على دار القضاء التى تحدد فيها المسؤوليات : « يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية » . ثم تشير الى الحكم ، فيصدر لفريق بالنجاة ، وعلى آخر بالادانة ، وإن

الأوليين يسلمون صك البراءة بأسلوب التكريم : « فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول : هاؤم اقرأوا كتابيه ، أنى ظننت أنى ملاق حسابيه » . وأن الآخرين يسلمون صك الادانة — على العكس — بالاهانة ، معترفين بعملهم الكاذب وغرورهم الفاسد : « وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول : يا ليتنى لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابيه ، ياليتها كانت القاضية ما أغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانيه » . وبعد أن يصدر الحكم يجيء دور التنفيذ فيكون المؤمنون « فى عيشة راضية ، فى جنة عالية ، قطوفها دانية ، كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية »

جزاء المكذب

أما المكذب المجرم فيقال للزيانية : « خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » . ثم تبرز الآيات حيثية الحكم على هذا المجرم : « انه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين » . وحسب المسكين أن يكون اهمال أمره وعدم الحض على اطعامه عديلا فى كتاب الله وقضائه للكره بالله .

وبعد أن يتم تصوير مراحل القضاء الالهى فى الفصل بين المؤمنين والمكذبين تنتقل السورة الى ما يقرر الحق فى النفوس ، وتبرز قسم الله — الذى ليس فى حاجة الى القسم — بالعالم غائبه وشاهده ، على أن القرآن قول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر ، ولا بقول كاهن . وانها هو تنزيل من رب العالمين .

ثم تعبر السورة عن موقف الألوهية بالنسبة لمحمد على فرض انه كما يزعمون قد افترى القرآن على ربه : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين » . والمعنى لقصينا عليه من ساعته ، وقطعنا منه عرق الحياة ثم لا يوجد من يدفع عنه ، أو يمنعنا من تنفيذ ارادتنا فيه ، وموقفنا منه — وقد افترى علينا — هو موقفنا منكم وقد كذبتوه فى رسالته .

اثر القرآن في النفوس

ثم تخرج السورة ببيان اثر القرآن في النفوس ، وأنه تذكرة للقلوب الصافية المستعدة للخير ، وحسرة على الأخرى التي انسدت استعدادها بالشهوات والأهواء : « وأنه لتذكرة للمؤمنين » . « وأنه لحسرة على الكافرين » . ثم تؤكد أن القرآن هو الحق الثابت الذي لا شبهة فيه ، وتأمر الرسول بالتزامه وإهمال المكذابين ، معتصبا في ذلك بتنزيه الله الذي أحاطه بعنايته ، والذي لا يرجى ولا يخاف سواه : « وأنه لحق اليقين » . فسبح باسم ربك العظيم .

سورة المعارج

(*) كان من أساليب الدعوة الى التوحيد والبعث الانذار المتكرر للمكذبين بعذاب يوم القيامة ، وكثيرا ما طوقهم القرآن — على نحو ما رأينا في السورة السابقة « الحاقة ما الحاقة » — بأنباء العذاب الأخرى والمحاكمة أمام القضاء الالهى .

عذاب ليس له دافع

وكان القوم يقايلون هذا الانذار بالانكار والاستهزاء والسخرية، ولقد وصل بهم الأمر في ذلك الى حد أن استعجلوا العذاب ، وإلى حد أن قال قائلهم « اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » .

وقد جاءت سورة المعارج ، بعد أن حققت سورة الحاقة أنباء البعث والقيامة ، تكشف عن ضعف عقلية القوم ، إذ كانوا يطلبون وقوع العذاب الذى به يوعدون ، بدل أن يطلبوا التوفيق الى الايمان فيكون ايمانهم وقاية لهم من ذلك العذاب ، وتؤكد لهم أن العذاب واقع بهم ليس من شك ، وليس لهم من ينجيهم منه ، وليس له من دافع يدفعه عنهم ، فمشيئة الله نافذة فيهم ، وعذابه لاحق بهم ، وترشدهم الى أن طول الأمد ، الذى لم يظهر فيه شيء منه ، إنما هو طول نسبى في انتظارهم فقط . أما في واقعهم ، وفى تدبير الله فهو يوم واحد ، هو يوم الدنيا ، ومرحلة واحدة ، هى مرحلة التدبير لشئون الدنيا ، ذلكم التدبير الذى اقتضت حكمة الله أن يكون بواسطة جند يترددون بينه وبين خلقه على معارج ومساعد فى يوم كان مقداره فى أيامكم خمسين ألف سنة . وما هى الا أن تمضى مرحلة التدبير ، ومرحلة التكليف ، وتأتى مرحلة الحساب وتحديد المسؤوليات ، وأذن فلا تكثر يا محمد بموقفهم منك واصبر صبرا جبلا ..

(*) سورة المعارج *

العـرـوج

وقد عبرت الآية عن مرحلة التدبير بعروج الملائكة والروح الى الله في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، وما علينا الا أن نؤمن بما تدل عليه الآية من قصر أمد الدنيا في نظام الله ، وليس علينا أن نكلف أنفسنا عناء البحث عن حقيقة شيء استأثر الله بعلمه .

ويلتقى هذا التصوير مع مثله في آية أخرى « ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » .

وفي آية ثالثة « يدبر الأمر من السماء الى الأرض ثم يعرج اليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون » .

فهم واجتهاد

والقصد من كل ذلك ان وقع العذاب الذي يسألونه يعقّب ذلك اليوم الذي يتردد فيه الملائكة بين الخالق والخلّاق ، وهو البقية من يوم النشأة الأولى . وقد جاء على لسان الرسول « بعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار الى السبابة والوسطى » واختلاف العدد يدل على مجرد الكثرة والمبالغة في وصف الدنيا بالطول بالنسبة اليهم لا بالنسبة لنظام الله وأيامه ، وقد أفصحت السورة عن هذا المعنى « أنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا » .

من علامات القيامة

ثم أخذت السورة تذكر علامات القيامة في السماء وانها ستكون كالمهل « مائع الزيت » ، وفي الجبال وانها ستكون كالعهن المنفوش « الصوف المنفوش » : وفي الانسان وأنه سيطلبه فيه كل امرئ بنفسه : « ولا يسأل حميم حميما » . ثم ترقى في وصف هول ذلك اليهم بان المجرم يتمنى فيه لو يفتدى من عذابه بأقرب الناس اليه واحبهم عنده ، ثم تقطع عليه أمل الفداء ، وتصور لحوق العذاب به بطمح النار فيه : « انها لظى » نزاعة للشوى ، تدعو من أدبر وتؤلى وجمع فأوعى » .

ثم تشير الآيات الى الانسان في انكار الحق ومحبتة الجمع والادخار اذا لم يعمتصم بهداية الله ، وان منشأ ذلك فيه غلبة الهوى عليه « ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا . واذا مسه الخير منوعا » .

ثم تذكر ان علاج ذلك الشأن انما هو القيام بحق الله وحق الفقير السائل والمحروم ، وفي التصديق بيوم الدين ، وفي الخوف من عذاب الله ، وفي حفظ الاعراض والامانات ، وفي الشهادات والمحافظة على الصلوات ، وانه بتلك خلال الفاضلة تتحقق عناصر الشخصية الناجية التي يكون أهلها : « في جنات مكرمون » ولو ان هؤلاء سلكوا هذا السبيل لكان مصيرهم الى النعيم ، ولكنهم رفضوا أن يطهروا قلوبهم وأخذوا يسخرزون بالحق ، ويفترون على الله ، يزعمون لأنفسهم استحقاق الجنة ، بل احقيتهم بها : « ايطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم كلا » ..

ثم تختتم السورة بتوعدهم ، وتوجيه النبي الى عدم الاكتراث بهم : « فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون » . وعندئذ يكشف لهم عن ساق ، وانهم كانوا على باطل ، ثم تصف خروجهم من القبور في ذلك اليوم ، مسرعين ملبين دعوة البعث ، مقهورين غير مختارين ، وتذكرهم في حالتهم هذه بحالتهم في دنياهم حينما كانوا يخرجون من بيوتهم متسابقين الى اصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله : « يوم يخرجون من الاجداث سراعا كأنهم الى نصب يوفضون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ، ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون » .

سورة نوح

(*) قول النبي صلى الله عليه وسلم منذ أن دعا الى توحيد الله وعقيدة البعث بهوجة شديدة من الانكار المصبوغ بالوان الاستهزاء والسخرية ، وقد اقتضت الحكمة الالهية ان يكون من اساليب الدعوة التذكير بما اصاب الأمم الخالية جزاء الانكار والتكذيب .

وفي هذه السورة يقص الله على نبيه موقف أول رسول بعثه للبشر فدعاهم الى مثل دعوته ، وقويل منهم بمثل ما قويل به ، تثبيتا له على دعوته ، وتسليية له فيما يصيبه ، وتهديدا لقومه — ان استمروا على العناد والاستهزاء — بعاقبة أسلافهم حينما استمروا على الكفر والعناد .

وللعرب رابطة خاصة بنوح عليه السلام ، وهى رابطة النبوة ، ففي التذكير بقصته تهديد لهم بجانب ما كان فيها من النعمة التي أخذت المكذبين ، وامتنان عليهم بما كان فيها من النعمة التي أنقذ بها نوح ، ومن آمن معه ، ومنه كان آباؤهم الذين بواسطتهم ظهروا في الوجود وتكونوا شعوبا وقبائل وانتشروا في الأرض ، والى هذا تشير آية الحاقة : « لمساطفى الماء حملناكم في الجارية » .

وقد تكررت في القرآن بأساليب مختلفة بين الطول والقصر تسليية الرسول وتذكير القوم بقصة نوح عليه السلام . وعنيت هذه السورة المسماة باسمه بأمور :

دعوة نوح وأصولها

أولها : بيان دعوة نوح ، وانها ترتكز على اصول ثلاثة : عبادة الله وحده ونبذ عبادة الأصنام .

(*) سورة نوح «

تقوى الله باجتناب المعاصى التى تفسد الاخلاق وتفكك الروابط بين الجماعات .

اطاعة الداعى فيما يأمر به عن ربه .

وهذه الاسس الثلاثة هى دعوة كل رسول جاء بعده ، وهى مصاعد الحياة الطيبة تعلو الامم اذا تمسكت بها ، وتسقط اذا انحرفت عنها : « انا ارسلنا نوحا الى قومه ان انذر قومك من قبل ان ياتيهم عذاب اليم ، قال يا قوم انى لكم نذير مبين ان اعبدوا الله واتقوه وأطيعون » .

فوائد الدعوة

ثانيا : بيان فوائد هذه الدعوة التى تعود عليهم بخيرى الدنيا والاخرة اذا قبلوها وآمنوا بها . والآيات ترشد الى أنهم ينتفعون بها فى نواح ثلاث :

ناحية الروح ، تمحو عنها ما اقترفته من الذنوب « يغفر لكم من ذنوبكم » .

ناحية الاجل ، فيها يستوفون اجلهم الطبيعى دون أن يعاجلهم العذاب المقدر عليهم اذا استمروا فى الكفر والمعاصى « ويؤخركم الى اجل مسمى » .

ناحية الرزق ، بفتح ابوابه وتوجيههم نحو العمل فى الحياة ، والانتفاع بها سخر لهم فيها : « يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا » .

سبل الدعوة

ثالثها : أن نوحا سلك معهم فى الدعوة السبل الطبيعية لكل دعوة جديدة أسر وأعلن ، وجمع بين الاسرار والاعلان ، ومع كل هذا : « جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا » .

دعاهم ببيان ما فى الدعوة من الخير الروحى والمادى ، ثم دعاهم بلفت الأنظار الى آيات الله ونعمه فى أنفسهم وفى الخلق كله :

« ما لكم لا ترجون لله وقارا ، وقد خلقكم اطوارا . الم خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعا سراجا . والله انبتكم من الارض نباتا ، ثم يعيدكم فيها اخراجا . والله جعل لكم الارض بساطا لتسلكوا مذ فجاجا » .

لفت انظارهم بعد ان هز عواطفهم الى برهان العقل خلق انفسهم والاطوار التي مرت بهم ، ونبه الى خلق ما من عالم علوى وسفلى على وجه يكفل لهم خير الدنيا الحياة .

ومن دقائق الاشارات العلية في نظام الكون ان الايات لشمس في السموات وهذا يتفق تماما مع ما عرف اخبر لشمس مركز النظام الشمسى ، وان الكواكب تحف به لقمر له مركز فيها ومعدود منها : « وجعل القمر فيهن نوا الشمس سراجا » .

عناد واعراض

رابعها : انه على الرغم من هذه الطرق المختلفة ، وتلك الواضحة ، نبذ قوم نوح دعوته ، واشتد انكارهم لها ، نوح اعراضهم ، مرة بوصف في انفسهم ، سدوا آذانهم بتيابهم ، ومرة بالشكوى الى الله الذى ارسله بهذه الد وأشار الى سبب اعراضهم : وهو اتباع الرؤساء المفتونين والاولاد : « قال نوح رب انهم عصوني واتبعوا من لم يولد الا خسارا » .

ثم كشف عن دعوة الباطل التى خدعهم بها هؤلاء الم « وقالوا لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا ودا ولا سواعا ولا يغوث ونسرا » .

وهنا أبرز أسماء الآلهة التى عبدوها من دون الله ، ه لتمثيل كواكب اعتقدوا انها منبع الخير ، أو أسماء لقوم اطلقوها على تماثيلهم التى اتخذوها معبودات وآلهة من دو ولعل هذه الفترة كانت مبدأ زلة العقل البشرى في اتخاذ

وعبادتها ، ومنه انحدر تقديس البشر من الأنبياء والأولياء بما يقديس به خالق البشر . ومن هنا حظر الاسلام صنع التماثيل واقامتها بفكرة التقديس والعبادة ، وبذلك اجتث جذور الوثنية ، ونعى على المستغيثين والمستعنيين بغير الله .

عاقبة المكذبين

خامسها : بيان العاقبة التي صار اليها القوم جزاء اعراضهم عن سماع الحق « مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا » . وقد عرضت سورة هود الى حادثة الطوفان التي أغرقت القوم : « واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين » . ثم اشارت الآيات الى حكمة الله في اخذ الجبارين المستكبرين وهي ترجع الى ارادة تطهير العالم من جرائم الشر والفساد : « انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا » .

وازاء هذه العاقبة السيئة التي تقطع على الجبارين حياتهم بشير الآيات الى العاقبة الطيبة لعباده المؤمنين « رب اغفر لى ولوالدى ولن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين الا تبارا » .

أما بعد :

فتلك قصة نوح كما وردت في ستورة نوح ، قصها الله على كفار مكة ، وعلى جميع الناس ، وهي مثال حي ناطق بسنة الصراع بين الحق والباطل في كل زمان ومكان ، وناطق بأن فساد العقلية البشرية ليس من اصل الطبيعة وانما هو من خداع المستكبرين المكبرين ، وناطق بأن الحق مهما طال ركوده لابد أن يعلو صوتته وينتشر في العالم ضوءه ، ويعم الكون خيره ..

وهكذا ستكون عاقبتك يا محمد وعاقبة كل من اهتدى بهدبك ، وسار على سنتك في الدعوة الى الحق والى الصراط المستقيم .

سورة الجن

(*) فطر الناس على ان في العالم خلقا آخر غير الانسان ، يعرفونه بآثاره ولا يرون أسبابه ، ولا يعرفون حقيقته ، وقد صرحت بذلك جميع الكتب السماوية بعبارات واضحة لا تحتمل التأويل ، كما صرحت بالعناوين الخاصة بهذا الخلق ، فذكرت الملائكة ، وذكرت أعمالهم ومهامهم ، ووصفتهم بالطاعة الدائمة ، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ..

الجن والانس

وذكرى الجن وجعلتهم نوعا مقابلا للانسان يندرجان تحت عنوان « الثقلين » ، وخاطبتهم وتحدثت عنهم ، كما خاطبت الانسان وتحدثت عنه : « يا معشر الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السموات والارض فانفذوا . لا تنفذون الا بسلطان فباي آلاء ربكما تكذبان . يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران » . « ادخلوا في امم قد خلت من قبلكم من الجن والانس في النار كلما دخلت امة لعنت اختها » . « ويوم يحشرهم جميعا يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال اولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضهم ببعض وبلغنا اجلنا الذي اجلت لنا . قال النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله » .

تكليف ومسئولية

وهكذا نجد القرآن قد اشرك الانس مع الجن في المسؤولية والمؤاخذه والمصير ، ووضعهما في اطار واحد ، وتحدث عنهما بحديث واحد ، وسرع في وجوههم جميعا حجة واحدة : « يا معشر

الجن والانس الم ياتكم رسل منكم يتصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ ؟ . . قالوا : شهدنا على انفسنا ، وغرثهم الحياة الدنيا ، وشهدوا على انفسهم انهم كانوا كافرين .

حقائق ثابتة

واذن فليس في وجود الجن شك ، وليس في تحميلهم شرائع الله ورسالاته شك ، وليس في مسئولياتهم ومؤاخذتهم بالتقصير شك ، وليس في استعدادهم لاستماع القرآن وتلقيه وفهمه وتدبره والتأثر به شك ، فكل هذا حق لا ريب فيه ، ومن لم يؤمن به فليس بمؤمن بالقرآن ولا برسالة السماء وان محاولة تأويل شيء منه تحريف للكلم عن مواضعه ، وسلخ للالفاظ عن معانيها ، وضيق عطن من المولعين بانكار ما لا يدركه الحس . .

استجابة الجن للاسلام

هذا وقد قص الله علينا في موضعين من كتابه استماع نفر من الجن للقرآن ، وان هذا الاستماع كان له اثره البالغ في نفوسهم ، صحح عقائدهم في الله ، وطهر نفوسهم من الاوهام والخرافات المتعلقة بهم ، وكملهم بالمعارف الصحيحة ، وانذعوا به الى ائذان قومهم فارشدوهم الى الحق في العثيدة ، والى الحق في الرسالة ، والى الحق في علاقتهم بالانس ، والى الحق في معرفتهم الغيب ، اجبل كل ذلك في قوله تعالى من سورة الاحقاف : « واذا صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا انزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى الى الحق والى طريق مستقيم . يا قومنا اجيئوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب اليم ، ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز في الارض وليس له من دونه اولياء اولئك في ضلال مبين » .

وهذه سورة الجن تفصل ما أجملته سورة الاحقاف من مبادئ الخير والفضيلة التى أدركوها من القرآن ، وتصحح على لسانهم الاخطاء التى كانوا عليها وأدركوا الحق فيها مما سمعوا من القرآن .

الجن يتحدثون

ولنصغ اليهم وهم يلغنون عقيدة التوحيد وتنزيه الرب عن اتخاذ صاحبة والولد : « ولن نشرك بربنا احدا وانه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا » .

ولنصغ اليهم وهم يضيفون فساد عقائدهم الى سفهائهم الذين يكذبون على الله ..

ولنصغ اليهم وهم يتحدثون الى قومهم عن معتقدون من الانس ان للجن سلطانا عليهم فيعوذون برجال منهم وضعوا في نفوسهم ان لهم سلطة استخدام الجن ، وسلطة منعهم من اذاهم ، وقد درج الناس على هذا الوهم ، واستغل به كهنتهم ضعاف العقول منهم باسم العلاج و « التحويلة » وساعدهم على ذلك طائفة من المتسمين بسمه العلم والدين وايدوهم بحكايات وروايات موضوعة — وقد يشاركونهم في الاستغلال والدجل — حتى افسدوا على الناس عقائدهم وصرفوهم عن العلم النافع والعمل المفيد . فجاء القرآن يقرر فساد ذلك كله على لسان الجن انفسهم : « وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » .

ولنصغ اليهم وهم يتحدثون الى قومهم في العقيدة الفاسدة . عقيدة ان الجن يعلمون الغيب ، وان اناسا يستخدمونهم في ذلك فيعلمون منهم ما تسوقه المقادير الالهية من شر فيتقى او خير فيرتقب . ثم يعلنون ان الغيب لله وحده ، وان القرآن قصر علم الغيب على الله فلا يعلمه احد سواه : « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو » . « قل لا اقول لكم عندى خزائن الله ولا اعلم الغيب » . « وانا لا ندرى اشر اريد بمن في الارض ام اراد بهم ربهم رشدا » .

ولنصغ اليهم وهم يتحدثون عن قدرة الله ، وعن العاقبة الطيبة لمن يؤمن بالله ، وعما كان بينهم من الاختلاف في العقيدة ، وعن مصير الجاحدين الظالمين : « وانا منا المسلمون ومنا القاسطون ، فمن اسلم فاولئك تحروا رشدا ، واما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً » .

توجيهات

ثم تختتم السورة — بعد حديث الجن الى قومهم بما سمعوا من الحق — بجملة توجيهات للنبي صلى الله عليه وسلم فتأمره ان يتمسك بدعوته ، وأن يعلن عجزه وعدم قدرته على الخير أو الشر ، وان السلطان عليه وعلى الناس لله وحده ، وأنه لن يجد من دونه ملجأ يلتجئ اليه ، وأنه مبلغ لرسالة ربه فقط ، وأنه لا يدري متى ينزل العذاب الذي توعدهم الله به ان لم يؤمنوا وأنه من الغيب الذي لا يعلمه الا الله لا يطلع على غيبه أحدا من خلقه الا من ارتضى من رسول فأنه يطلعه على ما أراد ثم يحفظه بجنته الالهى حتى يبلغ رسالته : « فأنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بها لديهم وأحصى كل شيء عددا » .

هذه قصة الجن في استماع القرآن والتأثر به وهداية قومهم اليه ، فهل تقف الشهوات والأهواء بالانس دون أن ينتفعوا بالقرآن — كما انتفع به الجن — وهم من جلدة الرسول ، تجمعهم وآياهم بيئة واحدة ، ورحم واحدة ، ونشأ واحدة ، وفي الحق أن في قصة الجن وتأثرهم بالقرآن على هذا النحو هزة عنيفة لانسانية الجاحدين المستكبرين من الانس ، وفيها فوق ذلك من العبر ما يلزم الدجالين في كل عصر ومكان حجر الحق الذي يفتت أمعاءهم ويذهب بكيدهم ويفسد عليهم أمرهم في التسلط على عقول الضعفاء من الناس فاعتبروا يا أولى الأبصار .

سُورَةُ الْمَزْمَلِ وَالْمَدَّثَرِ

(*) ركزت سورة الملك عقيدة التوحيد ، وسورة القلم عقيدة الرسالة المحمدية ، وسورتا الحاقة والمعارج عقيدة البعث ودار الجزاء ، ثم أقامت سورة نوح الحجة التاريخية الواقعية على صحة الدعوة ، كما أقامت سورة الجن الحجة البالغة على ما أحدثه القرآن من عظيم الأثر في نفوس الجن ، وأنهم فهموه وانتفعوا به وأرشدوا قومهم إليه ، وبذلك كله تركزت الدعوة في ذاتها ، وفي آثارها ، ولكن كل ذلك لا يكفي في تقبل الناس لها وانتفاعهم بها ، بل لابد لها مع هذا من لسان بين ، يحمله قلب قوى ، يدعو إليها ويعمل على نشرها والاقناع بها . وإن الحق لابد له من قوة تحمله وتحميه ، وهو لا يقوم في ظل الراحة والسكون ، ولا في ظل العزلة والانكماش ، وإنما يقوم :

أولاً : بأعداد النفس بتمرينها على تحمل المشاق وتكملها بالفضائل التي ترسل عليها أشعة الأنوار الإلهية فتضيء لها السبل ، وتمدها بقوة تقتلع منها بواعث الحيرة والاضطراب ، وتزيح من أمامها العقبات ..

وثانياً : برسم المنهاج الواضح للدعوة الذي يأخذ بالنفوس من طريق الشر إلى طريقها المهد ، وقد جاءت السورتان : « المزل » والمدثر » ترشداً إلى ما يجب من هذين الأمرين لينجح الداعي في دعوته ويقوم بمهمته ، والكلمتان معناهما : « المتلف بالثياب » وقد يكون ذلك إشارة إلى حالة حقيقية لجأ إليها النبي في بعض ظروفه . المتصلة بمفاجأة الوحي له ، أو بموقف القوم منه ، وقد يكون رمزا لحالة الدعة والسكون والتفكير العميق في وسائل الدعوة التي كلفها وعلى كل فالنداء بهذا الوصف ينهض ، الهمة ، ويوقظ النفس ، ويحرك بواعث العمل ويضعف التهيؤ لما يلقي من تعليم ..

يا أيها المزل

وقد تضمن النداء الأول : « يا أيها المزل » نهيه صلى الله عليه

(*) سورتا المزل والمدثر .

وسلم عن الدعة والسكون ، كما يكون من شأن المتهيب لعمل لم يعهده ، ولا يعرف قدرته عليه ، وتضمن ارشاده الى تقوية قلبه عن طريق قيام الليل ومناجاة ربه واستشعار عظمته ، فيستمد بها الحول والقوة ، والى تلاوة القرآن وتدبر الوحي الذى يلقي عليه تدبرا يملأ روحه ايمانا وقوة ، والى مشقة المهمة وصعوبة الدعوة لكى يبذل لها ما تستحق من العناية ، ولتهون على نفسه الصعاب حينما تصادفه وتتصل بدعوته ، والى توزيع الاعمال على الاوقات ، فيقوم فى كل وقت بالعمل الذى يكمل فيه وينضج ، فالليل للعبادة والقراءة والذكر ، والنهار للدعوة والتقلب بين الناس للارشاد والتعليم ، وقرأ فى ذلك كله قوله تعالى : « يا أيها المزمّل ، قم الليل الا قليلا » الى قوله : « واذكر اسم ربك وتبتّل اليه تبتيلا » .

يا أيها المدثر

ثم بجىء النداء الثانى : « يا أيها المدثر » فينزعه مرة أخرى من هموم نفسه وحيثه فى هداية قومه : يطرد عنه اليأس ويوجهه الى العمل ومباشرة المهمة : « ثم غائدر » ثم يجمع له أطراف المهمة فى كلمات قصيرة هى فى عظم معناها وضخامته أشبه بالقنابل الثقيلة تقذف معسكرات الشرك والظفاني ، وتبيد جرائم الفسوق والعصيان : « وربك فكبر » لا يكن فى قلبك مثقال ذرة من خوف غيره أو عظمة سواه ، وهذا تقرير لعقيدة التوحيد ، وتحرير للعقل من سلطة الوهم : « وثيابك فطهر » وهذا تحرير للنفس من قيود الأخلاق الذميمة .. « والرجز فاهجر » وهو تحرير للجوارح من قيود المعاصي والذنوب . وإذا كان الانسان عقلا ونفسا وجسدا ، وكان كل فساد أو صلاح منشؤه العقل أو النفس أو الجسد ، فملك ارشادات ثلاثة تطهر القوى الثلاث من كل شر ، وتجعلها خالصة لكل خير .

ولما كان ما تضمنه النداءان ، من وجوه الاعداد النفسى ، ونواحي العمل فى مهمة الرسالة ، يحتاج فى تحقيقه الى استعانة خاصة وجهاد قوى ، جاء عقب كل منهما فى السورتين تخصيص الصبر من بين الاخلاق بالذكر والعناية ، فتقول الأولى بعد الارشاد الى وجوه الاعداد « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا » . وتقول الثانية بعد الارشاد الى نواحي العمل : « ولربك فاصبر » .

للمكذبين عاقبة سيئة

ثم تأخذ السورتان ، كل بأسلوبها الخاص ، في شدد صلى الله عليه وسلم بتهديد المكذبين ، وبيان ما أعد لهم عد من العاقبة السيئة والعذاب الاليم فتقول الأولى : « و المكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا ، أن لدينا أنكالا وججيا و ذا غصة وعذابا اليما ، يوم ترجف الأرض والجبال وكانت ا كتيبا مهيلا » .. الى أن تقول : « فكيف تتقون أن كفرتم يوما الولدان شييا » وتقول الثانية : « ماذا نقر في الناقور ، فذلك يوم عسير ، على الكافرين غير يسير ، ذرئى ومن خلقت وح جعلت له ما لا ممدودا ، وبنين شهودا ومهدت له تهيدا طمع أن أزيد ، كلا ، انه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعود

وصف الجحيم

ثم تأخذ في وصف الجحيم بما يذيب النفوس ويبدد نياط القلا وتختتم الأولى « المزل » بأرشاد المؤمنين ، دعاة الحق ، والمز بالحق ، الى ما يحفظ لهم عز الحياة ، وسعادة الآخرة : « وما ت لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خير وأعظم أجرا » .. الثانية بتسجيل نكبة المعرضين عن الحق وأعتراهم على أذ بالكفر والطغيان ، والقسوة على الفقراء والمساكين : « قالوا من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائض وكنا نكذب بيوم الدين ، حتى أتانا اليقين ، فما تنفعهم شم الشافعين .. » الى أن تقول : « كلا بل لا يخافون الآخرة انه تذكرة ، فمن شاء ذكره وما يذكرون الا أن يشاء الله هو التقوى وأهل المغفرة » .

أما بعد ، فهاتان سورتا الاعداد والعمل ، فمن شاء أن الى السعادة فليعد نفسه بما رسمت سورة المزل ، وليعمل أساس مما رسمت سورة المدثر ، وليتذرع بالصبر والاخلاء وليسر بنفسه وأمته في ضوء تلك التعاليم المنبعثة عن الرب ، بطيات النفوس ، الرحيم بخلقه ، والله للعاملين المخلصين نعم ونعم النصير .

سورة القيامة

(*) كانت عقيدة البعث من أبعد ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم في نظر القوم وقد قوبلت منهم بشدة الإنكار المصوبغ بالوان الاستهزاء والسخرية ، وكثيرا ما كانوا يلقون بكلمات يزعمون انها براهين تحيل وجودها ، وتمنع التصديق بها : « اذا كنا عظاما ورغاما ائنا لمبعوثون خلقا جديدا ؟ » . « من يحيى العظام وهى رميم ؟ » . « ومتى هذا الوعد ان كنتم صادقين » وكان القرآن يلاحقهم في ذلك بانذاراته المتكررة ، وتأكيدياته المتعددة ، وبراهينه الحية الواضحة ، حتى لقد جاء فيه جملة سور سميت بأسمائها وأسمااء مقدماتها وأهوالها ، وكانت عقيدة البعث أبرز ما عنيت بتأكيد هذه السور ، ففيه الواقعة ، والغاشية ، والحاقة ، والقارعة ، وفيه التكوير ، والانفطار ، والانشقاق ، والزلزلة ، ولا نكاد نجد بعد ذلك سورة من القرآن الا قد عرضت لتلك العقيدة في ناحية من نواحيها .

ثمرة الايمان بالجزاء

والواقع ان الايمان بالجزاء أقوى ما يغرس في النفس الايمان بالحق ، والايمان بالفضائل ، ويبعث فيها ذاعية الخير وطاردة الشر . وهذه سورة القيامة تجيء بعد سورة المدثر التي سجلت على المجرمين ما سيكون من اعترافهم يوم البعث على انفسهم بالكفر والجحود ، فتؤكد أمر القيامة ، وأن تحققها ، في وقتها الذي يعلمه الله ، أمر بين لا يحتاج الى قسم : « لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة » .

واذا كان من سنة الله في القرآن انه لا يقسم في موضع الحاجة الى القسم الا بما عظم خطره في مخلوقاته ، ودلت العبارة على أن القيامة لا يحتاج في ثبوتها الى قسم بها عليها ، ولا بالنفس اللوامة عليها — كان في ذلك ارشاد الى أن القيامة وكذا النفس

(*) سورة القيامة .

اللومة من أعظم مخلوقاته خطرا ، وأقواها أثرا ، وأظهرها وجودا ،
وفي هذا تقرير لتحققها ووجودها .

النفس اللومة

وفي ضم القسم بالنفس اللومة الى القسم بيوم القيامة ارشاد
آخر الى مكانة هذه النفس التي لا تترك صاحبها عند درجة يلام
عليها ، بل لا تتركه عند درجة فوقها درجات من الكمال ، فهي
على الدوام تؤنبه على الدرجات الدنيا ، وتدفعه الى الدرجات
العلا ، حتى يعتلى أشرف المنازل في هذا اليوم الخطير ..

ابطال دواعي الإنكار

وبعد هذا الاستدلال المملوء بالوان من التأكيدات ليوم القيامة ،
تأخذ السورة في إبراز ما احتوت عليه نفس الإنسان الجاحد من
الظنون والأوهام التي زينته له الإنكار والجحود « أحيسب الإنسان
أن لن نجيع عظامه ؟ » . ثم تقذف هذا الحسبان الكاذب بما يقتله
من جذوره : « بلى قادرين على أن نسوى بنائه » . قادرين على
جمع عظامه ، وإعادة تركيبه الى آخر ما يبلغ به حد الكمال الخلقى ،
وهو تسوية البنان والأطراف ..

ثم تبرز السورة شأنا آخر — كان له اثره في انكار البعث والقيامة
— غير ظن العجز عن الاعادة : تغلبت على الإنسان شهوته ،
واندفع بها في لذته فغشى البعث بل وأنكره ليفك نفسه من قيوده
فيكون حرا طليقا فيما يشتهي : « بل يريد الإنسان ليفجر أمهه » .
علم ينكره نزولا عن برهان ، وانما هو محاولة التفلت من سلطان
التكاليف والمؤاخظة ، ولقد أبعد في ذلك حتى سأل سؤال المستهزئين :
« يسأل أيان يوم القيامة » وهنا تصف له الآيات ما سينزل به من
الأحوال التي تحيط به ، والتي لا يجد له منها ملجأ ينقذه ويخلصه :
« فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول
الإنسان يومئذ : أين المفر ؟ .. كلا لا وزر ، الى ربك يومئذ
المستقر » ..

وهنا تقدم له صخف أعماله ونياته خيئاً بها قدم وأخر ،
بل وتكون نفسه بصيرة وشاهدة عليه ، وعندئذ يحاول أن يخلص

من صحيفته ، فيعجل بقراءتها لتطوى ويفرغ من حسابه وموقف خزيه ، فيعلن بأن الأمر في ذلك ليس اليه وإنما هو الى الله صاحب الشأن في عرض الأعمال واطهار السيئات : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرأناه ، لماذا قرأناه فاتبع قرآنه » .

ثم تبرز السورة من نفس الانسان داعيا آخر لانكار البعث ، وهو محبة الدنيا التي تطمس عليه جانب الآخرة : « بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة » ..

وهنا تعرض السورة ان الناس في هذا الموقف أبرار وفجار : « وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة » ثم تحذرهم الركون الى الدنيا وتصور لهم أهوال الاحتضار حينما تبلغ الروح الحلقوم ، ويعجز الطبيب والكاهن . ويرى مشهد الفراق : « والتفت الساق بالساق الى ربك يومئذ المساق » . وهنا يسمع أسباب أحزانه « فلا صدق ولا صلى ، ولكن كذب وتولى ، ثم ذهب الى أهله يتمطى » يختال ويتكبر .

الجزء مقتضى الحكمة والمعدل

ثم تختم السورة بتقرير القدرة على الاعادة ، وانها من نوع القدرة على الخلق الأول ، وان الاعادة لتحديد المسؤوليات ، والجزاء على الأعمال أثر من آثار العناية بالانسان وتكريمه ، وانه لا يمكن — وقد أكرمه الله ونفحه بالعقل والشرائع — أن يتركه سدى وهملًا كالمجموعات دون حساب ولا جزاء : رسم له شرائعه ، ووهب قوى العمل ، وقوى التسلط على ما خلق ، وأنشأه عاملاً قويا يفكر من موهبة قذرة ، ثم أحاطه بعناية بما ينعم به في حياته ويحفظ له ذكره من بعد مماته ، فلا بد له أذن من يوم يسأل فيه عن النعيم ، ويتجلى فيه بالنسبة للمحسن والمسيء فضل الله وعدله ، وهو ذلكم اليوم الموعود : « أيحسب الانسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من مئى يمئى ، ثم كان علقة مخلوق فسوى فجعل من الزوجين الذكر والأنثى ، ليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى » .

آمنت بالله العظيم ..

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه الكريم سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ..

فهرس

صفحة	
٥	مقاصد القرآن
٩	سورة الفاتحة
١١	سورة البقرة
٢٧	سورة آل عمران
٣٢	سورة النساء
٤٥	سورة الانعام
٥٥	سورة الاعراف
٦٣	سورة يونس
٧٢	سورة هود
٨٠	سورة الكهف
٨٦	سورة مريم
٩٤	سورة طه
١٠٠	سورة النمل
١٠٣	سورة القصص
١١٤	سورة العنكبوت
١٢٠	سورة غافر
١٢٥	سورة فصلت
١٣٣	سورة الثوري
١٣٨	سورة الملك
١٤١	سورة القلم
١٤٥	سورة الحاقة
١٤٩	سورة المعارج
١٥٢	سورة نوح
١٥٦	سورة الجن
١٦٠	سورة المزمل والمقدر
١٦٣	سورة القيامة

